الفصل السادس

أَهِلَّة كثيرة

المسلمون المنقسمون في جنوب آسيا

«لم أفعل ما يكفي لمصلحة الوطن والشعب، وليس ثمة أمل في المستقبل».

أورانغزيب، آخر الأباطرة المغول العظام وأكثرهم إثارة للجدل الخلافي، في رسالة بعث بها من فراش الموت إلى ابنه عام 1707(1).

لم أدرك أن ذلك ممكن. لكن ملالي ديوباند، مركز الإسلام المتشدد في جنوب آسيا، استطاعوا الالتفاف على «فتوى» كرمى لي. فتمكنت من شرب فنجان من القهوة. كنت في زيارة إلى دار العلوم، وهي مدرسة إسلامية كبيرة في البلدة، التي تبعد زهاء تسعين ميلاً إلى الشمال من دلهي. كنا في أوائل أكتوبر 2001، والمدرسة تجتاحها موجة من المشاعر المناهضة لأمريكا. فقد كانت الولايات المتحدة على وشك البدء بحملة القصف على نظام طالبان في أفغانستان. الطالبان -والكلمة مشتقة من كلمة طالب باللغة الأوردية- ينتمون إلى مدرسة ديوباند الفكرية في الإسلام. ومع أن قلة من كبار مسؤولي طالبان قد زاروا ديوباند، إلا أنهم يعدونها معقلهم الروحي. كنت أجلس على الأرض في مكتب مولانا (لقب شرفي يطلق على علماء الإسلام) عبد الخالق مدرسي، نائب عميد المدرسة، مع مجموعة من طلابه. كانوا يقولون لي إن على المسيحيين عقد تحالف مع المسلمين ضد اليهود، السبب الحقيقي للمشكلات في العالم. الصهاينة، كما قالوا، هم الذين خططوا للهجمات على البرجين التوأمين في نيويورك قبل بضعة أسابيع. ووجدت من العبث مجادلتهم.

ثم سألني مولانا، الرجل الضخم الذي تصل لحيته إلى بطنه المنتفخ تقريباً، هل أرغب ببعض المرطبات. قلت أريد فنجان قهوة «نسكافيه»، وهو النوع الوحيد المتوافر عادة في

شمال الهند خارج المدن. قال بتجهم: «لا. لقد أصدرنا فتوى تحرم على المؤمنين شراء المنتجات الأمريكية أو البريطانية». حاولت عبثاً تقديم الحجة على أنني لست واحداً من المؤمنين ولذلك لا يمكن للفتوى أن تطبق علي. ضحك الحاضرون. ثم حاولت، وفشلت في إقناعهم بأن قهوة «نسكافيه» من صنع شركة نسلة السويسرية، لكنهم إما لم يسمعوا بسويسرا أو لم يروا الفارق. قالوا مؤكدين لا! وهم يحركون أصابعهم علامة على النفي، كأنما قبضوا علي متلبساً بمحاولة خداعهم. «النسكافيه إنكريزيه» (كلمة إنكريزي في معظم أجزاء الهند [مستمدة من إنكليزي] تعني أجنبي أو غربي). ثم خطرت فكرة على بال مولانا، الذي كان عضواً أيضاً في اللجنة التي أصدرت الفتوى. فأعلن مبتسماً: «فكرت بعذر شرعي. الفتوى تطبق فقط على المنتجات التي تم شراؤها بعد الحادي عشر من سبتمبر. فهل يملك أحد هنا (نسكافيه) أقدم من هذا التاريخ؟». رفع طالب يده. كان تاريخ إنتاج الظرف الذي أحضره يعود فعلاً إلى ما قبل الحادي عشر من سبتمبر. وكان ألذ فنجان قهوة ذقته في حياتي.

أسست ديوباند في أعقاب فشل العصيان ضد البريطانيين الذي نظمته أفواج المتمردين الهنود عام 1857. الانتفاضة المعروفة في الهند بحرب الاستقلال الأولى، قمعها البريطانيون بوحشية. وارتكب المتمردون من جانبهم أعمال عنف وحشية قتلوا فيها نساء وأطفال المسؤولين البريطانيين. وانتقاماً لذلك، دمر البريطانيون معظم مناطق شمال الهند، حيث أحرقوا القرى وعلقوا جثث المئات على الأشجار على جانبي الطرقات الرئيسة. ونظراً لافتقار المتمردين إلى إستراتيجية عامة وقيادة حكيمة، اختاروا آخر الأباطرة المغول، بهادور شاه ظفر، الطاعن في السن الذي لم يكن يملك سوى سلطة اسمية، قائداً لهم. ونتيجة لذلك حمل البريطانيون المسلمين أكثر من أي طائفة أخرى مسؤولية التمرد واستهدفوا رموز الإسلام في ردود الفعل الانتقامية العنيفة التي أعقبت ذلك. فدمرت أجزاء من دلهي المغولية أو نهبت؛ وتحول المسجد الجامع الكبير في المدينة -وهو أضخم مسجد في الهند- إلى معسكر لأفواج الجنود السيخ الذين ساعدوا البريطانيين على إلحاق الهزيمة بالمتمردين. وبقي زعماء المسلمين وقادتهم مختبئين عن

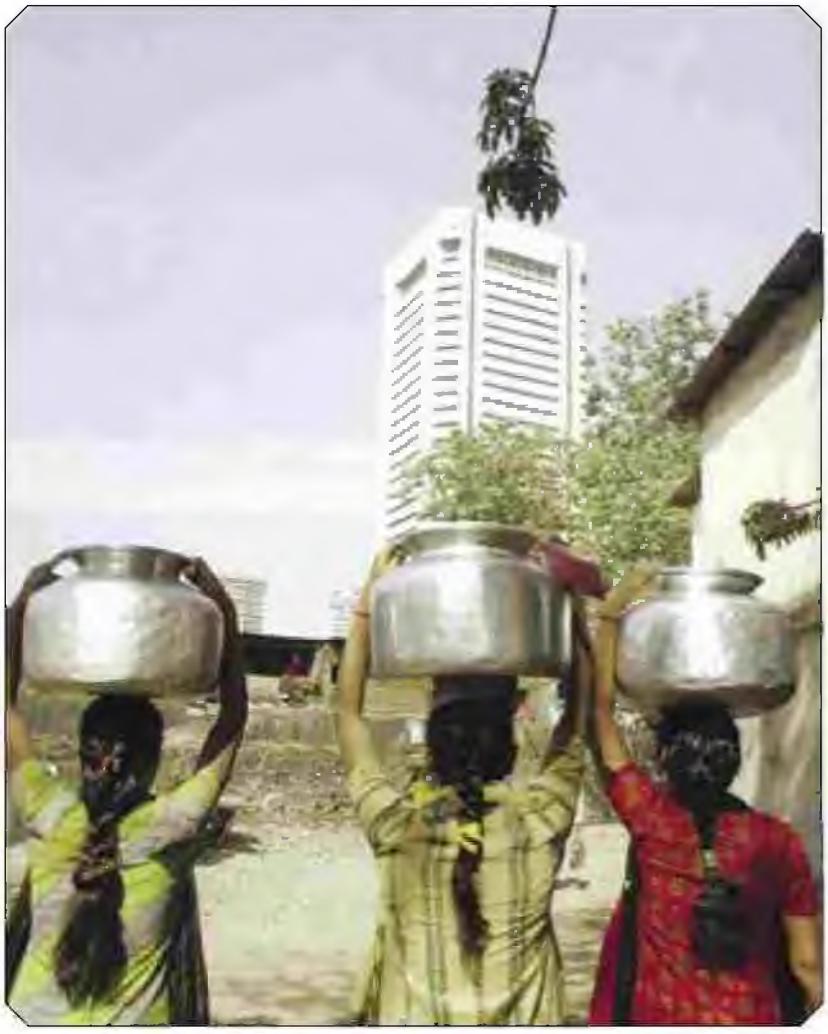

ثلاث نساء من سكان أحياء الفقر في مومباي يجلبن المياه إلى بيوتهن

موظفان في أحد مراكز خدمة الزبائن في بنغالور

ناندان نيليكاني، كبير المديرين التنفيذيين في شركة «إنفوسيس»، إحدى أنجح شركات تقانة المعلومات في الهند

الناشطة في ميدان الخدمة الاجتماعية، أرونا روي، وبعض القرويين الذين تدافع عن حقوقهم في ولاية راجستان

مشهد نمطي لحركة المرور في شمال الهند

طائرة ركاب تعبر فوق أحياء الفقر في مومباي قبل هبوطها في المطار

أحياء الفقر الممتدة بين ناطحات السحاب الحديثة في مومباي

لالو باساد ياداف، أحد أشهر وأذكى زعماء الطبقة الدنيا في الهند

بعض الهنود يؤدون الصلاة أمام صورة لبيمارو أمبيدكار، الذي منح الأمل للمهمشين في المجتمع الهندي

طابور من القرويين الذين ينتظرون الحصول على عمل (مأجور) في الانتخابات

سري سري شنكار، أحد أنجح الزعماء الروحيين في الهند

أعضاء في منظمة الشبيبة التابعة للمجلس العالمي للهندوسية يتدربون بعصي الخيزران

مسلم محاصر بالمتطرفين الهندوس يتوسل للحفاظ على حياته أثناء أعمال العنف الطائفية التي اندلعت في ولاية غوجارات في مارس عام 2002.

ناشط هندوسي متطرف مسلح بقضيب حديدي، ولاية غوجارات، فبراير 2002

حديث يدور بين جواهرلال نهرو والمهاتما غاندي، 1964

سونيا غاندي وابنها راهول في الذكرى الحادية والعشرين لاغتيال إنديرا غاندي

إنديرا غاندي (1979)، أقوى وأقسى شخصية تحكم الهند في تاريخها

مانموهان سينغ، رئيس وزراء الهند الأريب المتحفظ

جندي هندي على «خط السيطرة» يطلق صاروخاً على المسلحين المسلمين، نوفمبر 2001

الرئيس الباكستاني الجنرال مشرف، سبتمبر 2001

الدبابات الهندية في عرض عسكري أقيم بمناسبة عيد الجمهورية، 2000/1/26

رجال الشرطة الهنود يحيطون بأنصار حزب بهاراتيا جاناتا أثناء أحد اللقاءات السياسية الحاشدة

مترو الأنفاق الجديد في دلهي،
سبتمبر 2005

إحدى النساء المسلمات تتحدث عبر هاتفها النقال أمام مطعم مكدونالد

الهند القديمة: القرويون يسحبون الماء من بئر عميقة

أشهر نجوم بوليود، أميتباه باكشان (أقصى اليسار) يرقص مع النجمة اللامعة أيشواريا راج، ويبدو ابن أميتباه، أمبيشيك

شاب وفتاة من الجيل الجديد في الهند

مانموهان سينغ وزوجته، مع الرئيس بوش وزوجته

البريطانيين عدة سنين. فقد سيطرت عليهم حالة من اليأس الشديد. وكان قمع التمرد خاتمة توكيدية وساحقة لحقبة الأسر المسلمة الحاكمة في الهند.

انقسمت طبقة المثقفين المسلمين في الهند انقساماً عميقاً على أسلوب الرد. إحدى الجماعات التي قادها السير سيد أحمد خان، وجدت في المصالحة الخيار العملي الوحيد. لكن قرار السير سيد بعقد مصالحة مع البريطانيين استحثه أيضاً خوفه مما يحدث للمسلمين في الهند المستقلة التي تسكنها أغلبية من الهندوس. ولم يكن متفائلاً بالديمقراطية في الهند: «ستكون لعبة نرد، يملك أحد اللاعبين أربعة والآخر واحداً»[2]. في عام 1875، أسس جامعة عليكره الإسلامية، التي اختارت الإنكليزية لغة للتدريس وضمت العلوم الحديثة إلى مناهجها. والتحقق كثير من خريجيها بالخدمة المدنية الإمبراطورية. وشكلوا فيما بعد معظم طليعة النخبة الإسلامية التي قادت حركة تأسيس دولة باكستان.

المجموعة الثانية، التي قادها عالمان إسلاميان هما حضرة نانوتاني ورشيد أهواد غانغوهي، عدت فشل التمرد وحمام الدم الذي أعقبه علامة دالة على ضرورة عودة المسلمين إلى المبادئ الأولى. واعتقد أتباع مولانا نانوتاني أن سقوط الإسلام في الهند نجم عن العادات المترفة للحياة المنعمة تحت حكم المغول. وتفاقم ضعف المسلمين على مدى القرنين أو الثلاثة الماضية بسبب تبنيهم كثيراً من عادات الأغلبية الهندوسية من عبدة الأوثان[3]. فقد نسوا الرسالة العربية التي حملها الرسول الكريم. أسس نانوتاني دار العلوم في ديوباند عام 1866، لتقدم للمسلمين اليائسين» محيطاً شاسعاً للبحث عن المعرفة»[4]، لينسحبوا من عالم الكفر إلى عالم اليقين.

لم يوافق سوى عدد قليل من أتباع ديوباند على فكرة إقامة دولة باكستان، التي ظهرت أول مرة في ثلاثينيات القرن العشرين. وبوصفها دولة مستقلة، عد كثيرون منهم باكستان عاملاً تقسيمياً لأنها تقسم بصورة مصطنعة الأمة. واقتنع بعضهم بالانضمام إلى حركة الحرية بقيادة حزب المؤتمر وغاندي في عام 1919، الذي انتهز فرصة احتلال البريطانيين للجزيرة العربية في أعقاب انتصارهم على السلطنة العثمانية في

الحرب العالمية الأولى. إذ شعر كثير من المسلمين، خصوصاً مسلمي ديوباند، بالغضب العارم على وجود «الكفار» البريطانيين في الأراضي المقدسة. ومصادقة غاندي على حركة تنصيب خليفة مسلم لاستعادة الخلافة الإسلامية، التي ألغيت بعد خروج تركيا من ركام السلطنة العثمانية، غرست في حزب المؤتمر عادة الانتهازية التكتيكية تجاه المسلمين الهنود مازالت موجودة حتى الآن. وليس ثمة تفسير آخر لقرار غاندي بربط الكفاح الهندي في سبيل الحرية مع جدل ديني محض حول ما يجري في الأراضي المقدسة البعيدة. محمد علي جناح، زعيم الرابطة الإسلامية الذي سيصبح أول رئيس لدولة باكستان بعد زهاء ثلاثين سنة، اعتقد أن من الخطأ الخلط بين الدين والسياسة، فاستقال من حزب المؤتمر. ولم يوافقه الرأي سوى قلة قليلة من مسلمي ديوباند، فقد كان يشرب الخمر، ويأكل لحم الخنزير، ونادراً ما أدى الصلاة في الجامع. ولم يتخل عن زيه الأجنبي ليرتدي الثياب المحلية إلا في أوائل الأربعينيات.

مدرسة ديوباند خلطة من المباني المتصدعة والمتألقة التي لم تتغير كثيراً منذ بنائها. فأسلوبها المعماري القائم على التداخل بين الباحات والمسجد يعد طرازاً فريداً يجمع الأسلوبين الإسلامي الكلاسيكي والقوطي. نزلت في إحدى غرف الضيافة التابعة للمدرسة، وأرقتني طوال الليل الصراصير والبعوض. المدرسة تضم ثلاثة آلاف طالب، معظمهم من عائلات هندية فقيرة، يتلقون العلم ويقيمون في المدرسة مجاناً تقريباً. بعضهم يرسلون إلى ديوباند ولما يتجاوزوا الخامسة من العمر. ليبقوا هناك إلى سن المراهقة أو العشرينيات. يبدأ اليوم بصلاة الفجر، ويقطع الطلاب الدروس أثناء النهار لأداء الصلاة في مواعيدها. معظم المناهج والمقررات تعود إلى حقبة العصور الوسطى الأوروبية. والعلم الوحيد الذي يدرس هو الرياضيات «الإسلامية» ويتوقف عند نظام بطليموس للفلك لا عند نظام كوبرنيك الذي حل محله قبل عدة مئات من السنين. لغات التدريس الرئيسة هي العربية والفارسية والأوردية، بحيث يستطيع الطلاب قراءة القرآن بالعربية والشروح والتفاسير بلغاتهم الأصلية. ومثلما كانت عليه الحال أيام حكم طالبان في أفغانستان (1996 – 2001)، لا تسمح ديوباند بالألوان أو الموسيقى أو الاحتفال، باستثناء الأعياد الإسلامية.

لكن خلافاً لطالبان (أو أتباع ديوباند في باكستان المجاورة، الذين ينظمهم حزب سياسي هو جمعية علماء الإسلام، الذي يدير حكومة المقاطعة الشمالية الغربية الحدودية بأسلوب متشدد ومتزمت)، ينأى أتباع ديوباند في الهند عن السياسة – على الأقل عندما يتعلق الأمر بالهند. «نحن وطنيون هنود مخلصون ومواطنون صالحون»، كما قال مولانا. ومن يؤيدون إذ خاضت الهند حرباً مع بلد مسلم، مثل باكستان؟ «نفضل ألا يحدث ذلك، لكننا لن نخون الهند»، حسبما قال الطلاب بعض نقاش قصير. إذاً، هل هم هنود أولاً أم مسلمون؟ قال مولانا: «ليس ثمة تناقض بين الاثنين». ذكرته ببعض ممارسات طالبان الشائنة، مثل تدمير تماثيل بوذا القديمة في باميان (بوسط أفغانستان) في وقت مبكر من تلك السنة. التعليق آثار موجة ملحوظة من الحرج والارتباك. قال مولانا: «هؤلاء هم من الباتان [مجموعة أفغانية إثنية ينتمي إليها معظم الطالبان]. ثقافة الباتان أكثر تشدداً وتزمتاً بمراحل من ثقافة الهند. ومن الخطأ الخلط بين تجاوزات ثقافة الباتان وديوباند. نحن لا نملك ترخيصاً حصرياً لكلمة (ديوباند)».

رويت للحاضرين الانتقادات التي توجه إلى ديوباند من كثير من المسلمين –غير الملتزمين– الذين يعيشون في مدن الهند. فقد قالوا إن ديوباند ومئات المدارس التابعة لها في أنحاء الهند، التي أسسها وعمل فيها على الأغلب خريجو دار العلوم، تنتج طلاباً غير مؤهلين للتعامل مع العالم الحديث. ومعظمهم غير قادرين على الحصول على وظائف لائقة، نظراً لأن العلم الوحيد الذي يدرس، الرياضيات (واللغات)، هو من بقايا العصر العربي الذهبي الذي أصبح من مخلفات التاريخ. ففي سوق العمل الهندي اليوم، أنت بحاجة إلى مهارات التقانة الحديثة، مثل الحاسوب ومعرفة الطرق المتطورة في عالم المال. أجابوا: «إن تعلم العربية أو الفارسية لا يغلق الذهن. بل يفتح عالماً واسعاً من الثروات المعرفية التي لا تعرف عنها شيئاً». اعترفت بهذه النقطة. لكن ما هي الوظائف التي سيعملون بها؟ علت همهمة الحاضرين. وبدت إجاباتهم غير واضحة. أراد واحد أو اثنان العمل في تقديم البرامج باللغة الأوردية، أو الترجمة منها وإليها. وبرأيي فإن معظمهم سيصبحون مدرسين في المدارس الدينية.

دار معظم النقاش، الذي تراوح بين الحدة والود، حول الحرب القادمة في أفغانستان، التي سببت إثارة شديدة بين الطلاب. واعتقدوا أنها ستنتهي بانتصار طالبان. تحدث مولانا، الذي تميز ببلاغته الخطابية، أكثر من باقي الطلاب. سأل: «ما الذي يؤمن به الأمريكان؟ إنهم لا يؤمنون بشيء. ولا يعيشون من أجل شيء، سوى أنفسهم. ليس لديهم ضابط ينظم حياتهم. لقد استعاد الطالبان النظام والأمان في أفغانستان. هل تعلم أن خريجي ديوباند لم يتهموا قط بقضية اغتصاب؟». بدا التوكيد جريئاً ومغالياً، فدار العلوم تقدر عدد خريجيها في السنوات المئة والأربعين الماضية بستين ألفاً. سألته هل يعتقد أن على المرأة لبس البرقع (الحجاب الكامل). قال: «أجل نحن نوصي بأن تستر المرأة جسدها، لكن من أجل سلامتها. قبل أن يأتي (الإنكريز) إلى الهند، كانت الهندوسيات يرتدين البرقع». وما يزال كثير من النساء الهندوسيات يرتدين الحجاب في قرى شمال الهند. لكن هل يجعل ذلك المجتمع أكثر قوة وتماسكاً؟ وهل يحسن سلوك الرجال؟ «كل ما تتلقونه في مدارسكم في الغرب لا يتجاوز التعليم الدنيوي. لا توجد مبادئ أخلاقية في مجتمعكم. هنالك انشغال بأمور الذات وانغماس بالملذات فقط! هل تعرف لماذا لا يخشى الطالبان جنود أمريكا؟». توقف قليلاً قبل أن يقدم الإجابة الساخرة الختامية: «لأن الجنود الأمريكان مثل الأطفال. بل إنهم يأكلون الشوكولاته». ضج الحاضرون بالضحك. ومثلما تبين لاحقاً، فوض الجيش الأمريكي معظم عمليات طرد طالبان من السلطة إلى التحالف الشمالي*.

بعد الاستقلال عام 1947، عاش مسلمو الهند تحت غيمة من الريبة والاشتباه. ولم تبعد عنهم الشكوك قط. بعد التقسيم، الذي عده كثيرون في الهند مشابهاً «لعملية تشريح على حيوان حي»، عاش البلد في حالة من الاضطراب والفوضى. إذ لم يتعرض لموجة عارمة من أعمال العنف التي رافقت التقسيم فقط، حيث قتل عدد يتراوح بين نصف مليون ومليون ضحية، بل اجتاحته «المذابح الكبرى» في كالكوتا في أغسطس من عام 1946، حين أعلن محمد علي جناح «يوم العمل المباشر» ليظهر لحزب المؤتمر مدى

* مجموعة من المجاهدين السابقين الذين ينتمون غالباً إلى الطاجيك، دعمتهم في أواخر التسعينيات عدة قوى، منها الولايات المتحدة وروسيا وإيران.

عبثية معارضة دولته الجديدة. وعندما سئل عن التهديد الضمني بالعنف الكامن خلف «يوم العمل المباشر»، الذي ترك الشوارع تغرق في بحر من الدماء، قال: «لست مستعداً لمناقشة المبادئ الأخلاقية» (5).

يمكن إثبات حقيقة أن محمد علي جناح فاز بالقبول بقيام دولة باكستان منذ عام 1939، حين اعترف اللورد لينليثغو، نائب الملك في الهند، بالرابطة الإسلامية بوصفها الممثل الوحيد للمسلمين جميعهم في الهند البريطانية، مقابل دعم محمد علي جناح لمشاركة الهند في الحرب العالمية الثانية. وكان حزب المؤتمر قد رفض دعم بريطانية دون استشارته قبل إعلان الحرب باسم الهند. لكن لينليثغو أعلن دخول الهند الحرب دون استشارة حزب المؤتمر. وحين نعاين أحداث الماضي -وحتى في ذلك الحين- يبدو أن نائب الملك ارتكب خطأ ذريعاً. فقط كان كل من نهرو وغاندي معارضاً بشدة للنازية، ويخشى من توسع اليابان. وربما دعم الحرب لو استشير قبل إعلانها. قال نهرو متسائلاً: «كيف يمكن للهند أن تحارب من أجل الديمقراطية إذا كانت محرومة منها؟» (6).

ومع ذلك، حتى بعد أن ازدرى لينليثغو حزب المؤتمر ودفعه إلى معارضة مشاركة الهند في الحرب، طلب غاندي من الجنود الهنود البقاء في مواقعهم. أما نهرو، الذي كان بحاجة إلى مجرد طلب رمزي من البريطانيين لضمان دعمه لتورط الهند في الصراع ضد الفاشية، فقد قال إنه سيقاتل دفاعاً عن بلاده ضد الغزو الياباني. بل سيحارب للدفاع عن الهند ضد الجيش الوطني الهندي، وهو جماعة من الجنود الهنود الذين انضموا إلى اليابانيين بقيادة سوباش تشاندرا بوس، أحد زعماء حزب المؤتمر السابقين. لكن الجيش الوطني «علق» مع سادته اليابانيين في أدغال بورما ولم يغز الهند قط. وعمل نهرو على عدم ضم أي ضابط حارب تحت راية الجيش الوطني أثناء الحرب إلى الجيش الهندي بعد الاستقلال (7).

بعض الهنود يقتفون أصول إقامة دولة باكستان إلى عام 1909، حين أسس اللورد مينتو، نائب الملك، ما عرف باسم «جماعات الناخبين الطائفية» (دوائر انتخابية مخصصة للجماعات الدينية) في الوقت الذي منح فيه ديمقراطية محدودة في الأقاليم

إلى الهنود من أصحاب الأملاك. وساعدت هذه الخطوة، التي عدها البريطانيون إجراء ضرورياً لضمان حصول أكبر الأقليات في الهند على حصة عادلة من الأصوات في القاعات والمجالس التشريعية، على غرس سياسة الأقلية في صلب الديمقراطية الهندية في مرحلة مبكرة جداً. كما ضمنت وجود حزب إسلامي يجذب المسلمين الذين ليست لديهم محفزات قوية للتحدث باسم غيرهم أو إليهم. «الدوائر الانتخابية المستقلة.. مكنت الحكومة من إقامة نظام من السيطرة السياسية يمكن أن يتجاهل في جزء كبير منه حزب المؤتمر»، كما كتب فرانسيس روبنسون، أحد أبرز مؤرخي تلك الحقبة[8].

بين عامي 1909 – 1947، بذل البريطانيون كل جهد ممكن لفصل المسلمين عن حزب المؤتمر. وتعرض الأعضاء المسلمون في الحزب على وجه الخصوص إلى مضايقات مزعجة ومتكررة من السلطات. وأمضى كل من نهرو وغاندي عقداً كاملاً من السنين تقريباً وراء القضبان. لكن محمد علي جناح لم يقض ليلة واحدة في السجن. وتقدم روايات بريطانية عديدة الحجة على أن البريطانيين قد استحثهم باعث نبيل يهدف إلى حماية المسلمين من ثقافة الأغلبية الهندوسية. لكن بمرور السنين بذلت السلطة الاستعمارية المستحيل لتعميق حدة الانقسامات التي زعمت أنها تحمي منها ضحاياها المفترضين. يصعب تصديق هذا التفسير الكريم لأفعال البريطانيين في ضوء الحقائق العارية. فمن الواضح أن بريطانية كانت تأمل بإطالة أمد حكمها للهند عبر مفاقمة الانقسامات السياسية وتعميقها بين الهنود.

حتى إن كانت نية البريطانيين صادقة وصافية عندما أنشأت أصلاً «المكافآت الطائفية» (دوائر انتخابات مستقلة)، يتعذر إخفاء أو تمويه الغرض الأساسي مع تكشف فصول القصة. في عام 1931، دعت بريطانية مجموعات من الهنود إلى لندن لحضور مؤتمر مائدة مستديرة حول مستقبل الهند. وقدم غاندي قائمة بمندوبي حزب المؤتمر الذين رغب بأن يحضروا معه. فرفض البريطانيون المسلمين منهم[9]. وفي عام 1936، أجرى البريطانيون انتخابات عامة في الأقاليم الهندية. ففاز حزب المؤتمر بنصف الأصوات في أهم ولاية، المقاطعات المتحدة (أوتر براديش فيما بعد). أما الرابطة الإسلامية بزعامة

محمد علي جناح ففازت بأقل من نصف المقاعد المخصصة للمسلمين، وبنسبة لم تتجاوز 4.4% من الأصوات في الهند ككل[10].

يحدد بعض المؤرخين، خصوصاً الباكستانيين منهم، موعد انطلاق دولة باكستان المحتومة في المدة التي أعقبت الانتخابات الإقليمية عام 1937، حين رفض حزب المؤتمر المنتصر الدخول في تحالف مع الرابطة الإسلامية في ولاية المقاطعات المتحدة. وكان حزب محمد علي جناح قد فاز بأقل من ربع المقاعد في المقاطعة، لكن ثمن عقد التحالف كان ضرورة اعتراف حزب المؤتمر بالرابطة بوصفها الممثل الوحيد للمسلمين كلهم. وكان ذلك أمراً مشيناً، نظراً لوجود كثير من الأعضاء المسلمين في حزب المؤتمر وكثير من الناخبين المسلمين الذين صوتوا له. ومع ذلك، قدم بعض المراقبين الحجة على أن حزب المؤتمر قد ارتكب خطأ تكتيكياً في رفض التحالف مع الرابطة لأنه كان سيتيح الفرصة لنزع أنياب أكبر الأحزاب الطائفية. لكن نهرو شعر بأن التحالف مع الرابطة قد يغضب المتطرفين الهندوس الذين وجد فيهم تهديداً متنامياً للهند المستقلة (والموحدة).

حين افتقد محمد علي جناح الدعم الشعبي تلقى التعويض من رعاية البريطانيين. ففي ديسمبر 1939، وبعد أن وافق على دعم المجهود الحربي البريطاني، حصل على مكافأته. في حين استقالت حكومات حزب المؤتمر في الأقاليم، ومنها ولاية المقاطعات المتحدة، احتجاجاً على إعلان بريطانية الحرب (على المحور) نيابة عن الهند. فاحتفل محمد علي جناح بإعلان «يوم الإنقاذ». ففي مارس 1940، أعلن قيام «باكستان المنفصلة» في لاهور - وهي أول مرة يطالب فيها علناً بدولة مستقلة. لكن الرابطة الإسلامية ظلت تفتقر إلى التأييد الشعبي. وظل حزب جناح، إلى موعد قيام دولة باكستان، يستمد معظم التأييد والدعم من ملاك الأراضي والنخب الحضرية من المسلمين. «المشكلة الدينية أو الطائفية الحقيقية هي نزاع بين أفراد الطبقة العليا لتقسيم مكاسب المناصب أو التمثيل في المؤسسات التشريعية» كما قال نهرو[11]. سيتفق كثير من الهنود مع إم. جي. أكبر، مؤرخ سيرة نهرو، الذي كتب يقول: «باكستان وحش أوجده كره أنتج بصورة مصطنعة»[12]. ومن الطبيعي ألا يوافق معظم الباكستانيين على هذا التفسير.

لكن التاريخ اتخذ مساره المعروف. فحصلت الهند على الاستقلال وفيها أقلية مسلمة كبيرة، عانى كثير من عائلاتها تبريح هجرة أفراد منها إلى باكستان إلى الأبد. ومع أن قرار أولئك الذين بقوا في الهند يجب أن يضعهم فوق الشبهات، إلا أن ولائهم ظل محل شك ومساءلة من المتطرفين الهندوس وغيرهم. وعلى نحو مشابه، فإن المسلمين الهنود الذي هاجروا إلى باكستان من مقاطعات وأقاليم مثل بيهار وأوتر براديش ما يزالون يسمون في باكستان (حتى في القرن الحادي والعشرين) بـ«المهاجرين». وظلوا مواطنين من الدرجة الثانية. والمفارقة المضحكة -والمبكية- للتقسيم أن المسلمين الذين هاجروا إلى باكستان يجب أن يكون لهم الحق -مثل غيرهم- في أن يكونوا مواطنين باكستانيين، مثلما يحق للذين بقوا في الهند أن يكونوا مواطنين هنوداً، نظراً للتضحيات التي قدموها؛ إلا أن أولئك الذين بقوا في الهند ظلوا محل شبهة فيما يتعلق بولائهم ووطنيتهم، وحرم الذين هاجروا من الوصول إلى مراكز السلطة، فضلاً عن الجيش، في باكستان الحديثة. ولم تبهت حدة تناقضات التقسيم إلى الآن.

ثمة تركة بريطانية ثقيلة أخرى مازالت مستمرة في تكدير العلاقات في شبه الجزيرة الهندية إلى اليوم، وتهدد بين الحين والآخر الاستقرار الإقليمي: وضع كشمير المتنازع عليه. إذ يقول المدافعون عن الاستعمار البريطاني إن اتهامه بتبني مبدأ «فرق تسد» غير عادل. ورأيهم يعتمد على حقيقة أن الهند كانت منقسمة انقساماً عميقاً قبل وصول البريطانيين، والانقسام الديني على وجه الخصوص لم يكن ابتكاراً أو صناعة بريطانية. هنالك بعض الحقيقة في هذا الرأي. لكن لن يجادل كثيرون في حقيقة أن انسحاب بريطانية من الهند كان سريعاً ومتهوراً وافتقد الحنكة والحكمة. فوفقاً لشروط التقسيم، أقنع ماونتباتن، آخر حاكم بريطاني، نهرو المتردد بضرورة أن تختار الإمارات في المستعمرة التي بلغ عددها المئات الدولة التي ستنضم إليها. في معظم الحالات كان ذلك رأياً أكاديمياً، نظراً لأن المهراجا المعني كان ينتمي إلى الدين نفسه الذي يعتنقه أتباعه. لكن في جوناغاد، وحيدر أباد، وكشمير، كانت ولاءات الحكام متناقضة مع دين أغلبية رعاياهم. وفي حالة حيدر أباد، كان الوضع سخيفاً وعبثياً بصورة خاصة، نظراً لأنها لم

تكن قريبة جغرافياً من باكستان الشرقية (التي كانت تعرف بالبنغال الشرقية، وأصبح اسمها بنغلاديش عام 1971)، ولا باكستان الغربية (التي تألفت من السند، والمقاطعة الحدودية الشمالية الغربية، وبالوشستان، وقرابة نصف البنجاب). في إحدى المراحل في عام 1948، بدا حاكم حيدر أباد المسلم على وشك إعلان الانضمام إلى باكستان. لكن في مدة ثمان وأربعين ساعة أرسل وزير داخلية الهند فالاباي باتل قواته إلى الإمارة. احتجت باكستان، لكن صعب فصل حيدر أباد بعد انضمامها إلى الهند. الشيء ذاته حدث في جوناغاد، حيث تجاهل الأمير المسلم مشاعر رعاياه الهندوس وعواطفهم وأعلن انضمامه إلى باكستان. لكن الهند ضمت الإمارة.

تبين أن وادي كشمير أكثر إشكالية للهند. هنا، حكم الأغلبية المسلمة أمير هندوسي، المهراجا هاري سينغ. تقع كشمير أيضاً على حدود مقاطعة البنجاب الباكستانية، ولذلك كان انضمامها إلى باكستان ممكناً. لكن الهنود شعروا بأن هذا سيعرض وطنهم لتهديد لا يمكن قبوله، نظراً لأن كشمير تسيطر على موقع حيوي يشرف على شبه القارة. فضلاً عن ذلك كله، ستكون كشمير المقاطعة الهندية الوحيدة التي تضم أغلبية من المسلمين، وهي نقطة بالغة الأهمية لحكومة حزب المؤتمر التي رغبت بتلميع صورتها ومؤهلاتها العلمانية. أخيراً، ربطت نهرو بكشمير صلة وجدانية عميقة، فقد أتت منها عائلته واعتاد أن يقضي فيها معظم عطلات الصيف.

ولزيادة الإحباط المتنامي الذي أصاب محمد علي جناح ونهرو كليهما، راوغ مهراجا كشمير فيما يتعلق بالدولة التي يرغب بالانضمام إليها. وراودتهما الشكوك بأنه سيعلن استقلال كشمير عن الهند وباكستان معاً. لكنه وقع في نهاية المطاف قرار ضم كشمير إلى الهند في أكتوبر عام 1947، وذلك مع اقتراب آلاف المقاتلين من رجال حرب العصابات الباكستانيين من العاصمة سرينغار[13]. فأرسل نهرو على الفور الجنود الهنود بطريق الجو إلى سرينغار حيث استطاعوا الدفاع عن المدينة ومنع أفراد قبيلة أفريدي الباكستانية من التقدم. وأخيراً وافق الطرفان على وقف إطلاق النار برعاية الأمم المتحدة. أما خط وقف إطلاق النار، الذي يقسم الولاية إلى قسمين، فهو معروف أيضاً باسم «خط السيطرة».

وبقي خط الحدود الفاصل بين الإدارتين الهندية والباكستانية. ومع أن الخط لم يتغير، إلا أن العالم من حوله تغير تغيراً جذرياً. واليوم، على الرغم من عملية السلام الأخيرة بين الهند وباكستان -التي بدأت عام 2003، ومازالت متواصلة، ويعتقد بعض المراقبين أن أمامها فرصة أفضل للنجاح مقارنة بالمساعي السابقة- إلا أن «خط السيطرة» يعد أخطر بؤرة يمكن أن تندلع منها حرب نووية في العالم.

المرة الأولى التي زرت فيها كشمير كانت في نوفمبر 2001. كنت قد قضيت معظم أيام الشهرين السابقين في باكستان، إلى جانب آلاف الصحفيين، أراقب استجابة النظام الحاكم لإنذار إدارة بوش الذي أطلقته بعد الحادي عشر من سبتمبر. وقيل إن بوش أبلغ الرئيس الباكستاني الجنرال برويز مشرف: «إما أن تكون معنا أو ضدنا». ولم يكن من المفاجئ، نظراً لقوة الولايات المتحدة، أن يقرر مشرف بسرعة تأييد باكستان للولايات المتحدة في «حربها على الإرهاب». ووعد أيضاً بمساعدة إسلام أباد في طرد نظام طالبان من الحكم في أفغانستان (بعد أن ساعدتهم باكستان في الوصول إلى السلطة).

بدا الوضع متوتراً جداً في باكستان. شاهدت أول خطاب يلقيه برويز مشرف أمام الأمة بعد الحادي عشر من سبتمبر باهتمام شديد. فقد برر قراره بالتحالف مع الولايات المتحدة بثلاث ذرائع: سيحمي منشآت باكستان النووية (من الولايات المتحدة كما هو مفترض، إذا لم تنضم باكستان إلى التحالف ضد الإرهاب)؛ ويساعد اقتصاد باكستان المتعثر؛ ويدعم حق باكستان في السيادة على كشمير على المدى الطويل (عبر حفاظ باكستان على علاقات جيدة مع القوة العظمى الوحيدة في العالم). أما الشعار الذي رفعه مشرف فهو «باكستان أولاً». وتعد الكلمتان إشارة دلالية إلى حقيقة حاسمة الأهمية: القومية أكثر أهمية من الدين. وباكستان تأتي قبل الإسلام.

بعد بضعة أسابيع، ذهبت مع مجموعة من الصحافيين الأجانب إلى الجزء الباكستاني من كشمير، الذي تدعوه باكستان أزاد كشمير («كشمير الحرة»)، وتدعوه الهند «كشمير المحتلة من باكستان». نقلونا إلى موقع صغير على «خط السيطرة» يشرف على الجزء الهندي الذي يبعد قرابة كيلو متر واحد على الطرف الآخر من بعض التلال الخضراء.

شاهدنا الجنود الهنود بالمنظار المقرب ونظروا نحونا هم أيضاً. وتبادلنا التحية معهم. كان الرائد الباكستاني الذي يرافقنا حريصاً على توكيد أهمية إجراء استفتاء في كشمير. «يجب أن تسمح الهند باستفتاء تجريه الأمم المتحدة لتتيح للشعب تقرير مصيره وهل يريد الانضمام إلى باكستان أو الهند. فإذا اختار أن يكون هندياً فسوف نقبل خياره»، كما قال.

من المفارقة التي تدعو إلى السخرية، حين نأخذ بالاعتبار رفض الهند اللاحق لمشاركة أي «طرف ثالث» في النزاع، أن نيودلهي هي التي طلبت توسط الأمم المتحدة من أجل وقف لإطلاق النار عام 1948، الذي أدى إلى قرار أصدره مجلس الأمن حول كشمير. طالب القرار باكستان بالانسحاب من كشمير قبل إجراء استفتاء. كان من المستحيل أن تنسحب باكستان من أزاد كشمير، ولذلك بقي قرار الاستفتاء حبراً على ورق. وفي عام 2004، بعد بدء عملية سلام جديدة، تخلى مشرف فجأة عن المطالبة بإجراء استفتاء. أي أنه تخلى عن جوهر سياسة باكستان إزاء كشمير طوال أكثر من خمسين سنة.

في الأسبوع اللاحق على زيارتي إلى كشمير، تناولت العشاء في مطعم ضباط الفوج الهندي المتمركز قرب الموقع الباكستاني الذي زرته قبل بضعة أيام. قال العقيد الهندي الذي استضافني: «أحياناً نطلق النار عليهم، وفي أحيان أخرى يطلقون النار علينا. لكن دون أن يصاب أحد بأذى عادة». اللعبة الحقيقية كانت -ومازالت إلى حد ما- تتمثل في تسلل الميليشيات التي تدعمها باكستان («مقاتلو الحرية» في إسلام أباد؛ و«الإرهابيون» في نيودلهي) عبر «خط السيطرة» إلى الجانب الهندي. عمليات التسلل تحدث عادة في الليل حيث يوفر الجيش الباكستاني الغطاء الناري الضروري لمساعدة الميليشيات على الاختراق. وزعم العقيد الهندي أنه قام بعدة عمليات «اعتراض» ناجحة لهذه الاختراقات. الثلج سيغطي المنطقة قريباً، ومع تغير الحالة الجوية تقل عمليات التسلل كما قال. القوة الصغيرة من الجنود الهنود متمركزة في خنادق تشرف على واد عميق وترتفع قرابة أحد عشر ألف قدم. الرياح الباردة المنذرة بقدوم شتاء الهملايا تعصف منذ الآن بالمطعم. تناولنا عشاء مكوناً من حساء اللحم والخضروات الحارة والخبز الطازج. بدت الحياة شاقة هناك.

هنالك زهاء 450 ألف جندي هندي نظامي وشبه نظامي متمركزين في كشمير، وكثير منهم يقضون فصول الشتاء الطويلة على الممرات الشاهقة المحيطة «بخط السيطرة». في حين يتمركز غيرهم، ممن تتراوح أعمارهم بين ثمانية عشر وتسعة عشر عاماً، بين الحين والآخر على بعد مائتي متر تقريباً على طول الطرق المؤدية إلى كشمير وشوارعها، في ملاجئ في انتظار أن تطلق عليهم النار أو يبدؤون هم بإطلاق النار. حياتهم لا تصدق. لكن الزي العسكري الموحد للجنود الهنود المنتشرين في كل مكان من كشمير يعطي المقاطعة سمة المنطقة المحتلة التي لا تخطئها العين. فمع عدد السكان الذي لا يتجاوز ثمانية ملايين، تبدو نسبة الجنود إلى المدنيين مرتفعة إلى حد بعيد. فأكبر عدد من الجنود الأوروبيين الذين تمركزوا في الهند البريطانية بلغ مئة ألف في أعقاب التمرد، حين وصل عدد سكان الهند إلى مئتي مليون. وربما كان ذلك مقياساً لمدى السهولة التي استطاع بها المستعمرون تقسيم الهنود والتفريق بينهم. أو هو مقياس لمدى الصعوبة التي تواجهها الهند في كسب ولاء الكشميريين.

هنالك جانب آخر لزيارتي في نوفمبر عام 2001. فقبل أسبوعين اقتحمت مجموعة من «الفدائيين» (انتحاريين مدربين) بوابات الجمعية التشريعية الكشميرية في سرينغار وفجروا أنفسهم ومركبتهم، فقتل العشرات. كان الهجوم محملاً بالرموز الدلالية، وحدث بعد بضعة أسابيع من الحادي عشر من سبتمبر. في ذلك الوقت، كان أهالي كشمير في حالة من الاضطراب والهيجان نتيجة الحملة التي شنها المتشددون الإسلاميون لتغيير السلوك العام. فخلافاً لباكستان، حيث البرقع منتشر على نطاق واسع، فإن معظم نساء كشمير سافرات – والطريقة الإسلامية المتبعة في كشمير تعتمد على كثير من المذاهب الصوفية، التي لا تحمل شبهاً كبيراً بالإسلام المتزمت الذي تتبناه ديوباند أو الطالبان أو غيرهم من الجهاديين. وتعرض عدد من النسوة السافرات في كشمير إلى عمليات تشويه وحشية في الأسابيع السابقة، حين ألقى المتشددون حمضاً حارقاً على وجوههن. كل كشميري قابلته تقريباً عبر عن كراهيته للمتشددين والمتزمتين ووجه اللوم إلى باكستان على ما يفعلونه. لكنهم عبروا أيضاً عن استيائهم المرير من قوات الأمن الهندية، التي أدى اقتحامها لحياتهم إلى كثير من الانتهاكات لحقوق الإنسان، ومنها أعمال الاغتصاب والتعذيب

والقتل. «نحن عالقون بين المطرقة والسندان»، مثلما قال أحد المحامين الكشميريين. إنها آفة تصيب حياتهم.

بحلول عام 2001، تغيرت طبيعة الحركة الانفصالية الكشميرية تغيراً جذرياً عن الأيام المبكرة للتمرد الذي اندلع عام 1989. هدأ الوضع في الإقليم بين عامي 1948 - 1989. لكن في عام 1987، زورت نيودلهي بطريقة مفضوحة انتخابات الجمعية التشريعية في الولاية لضمان وصول حزب مؤيد للهند إلى السلطة. وأطلقت مشاعر الاستياء والسخط على إجراءات نيودلهي الخرقاء وفسادها وتدخلها في شؤون الولاية، شرارة التمرد للمطالبة باستقلال كشمير. في السنوات القليلة الأولى، لم يكن للتمرد علاقة مباشرة بالإسلام، ولم يخضع بعد للسيطرة الباكستانية الكاملة. لكن جبهة تحرير جامو وكشمير المحلية، التي سعت لاستقلال كشمير عن الهند وباكستان معاً، أخذت تحل محلها تدريجياً أثناء التسعينيات، جماعات أخرى تسللت إلى الإقليم وأرادت أن تصبح كشمير جزءاً من باكستان. كثير من الجماعات خضعت للإسلاميين المتشددين في الجانب الباكستاني من كشمير، ومن البنجاب (الباكستانية)، ومن المقاطعة الحدودية الشمالية الغربية. بل هناك مقاتلون من أفغانستان والشيشان وغيرهما من أقطار العالم الإسلامي. وبدت باكستان على استعداد لمنح حرية الحركة لهؤلاء الجهاديين القادمين من خارج كشمير إذا ساعدوا بالمقابل إسلام أباد في مهمتها التي تستهدف إضعاف قبضة الهند على المقاطعة. من وجهة نظر باكستان، كان توقيت بدء التمرد الكشميري، الذي فاجأ إسلام أباد ودلهي معاً، مناسباً وملائماً إلى أبعد حد. فقد تزامن مع انسحاب القوات السوفييتية من أفغانستان عام 1989، ليتركوا في أعقابهم آلافاً مؤلفة من المجاهدين المنتصرين الباحثين عن قضية جديدة. ونقلت المخابرات الباكستانية سيئة السمعة كثيراً من المجاهدين الأفغان إلى كشمير أثناء تسعينيات القرن العشرين وبعدها.

بعد بضعة أسابيع من زيارتي الأولى إلى كشمير عام 2001، تحول انتباه العالم فجأة من أفغانستان إلى الهند وباكستان. فقد انهار نظام الطالبان بعد استيلاء التحالف الشمالي على كابول. وبدأ الأمريكيون يدركون أنهم ربما لا يعثرون على أسامة بن لادن

في سلسلة جبال تورا بورا على الحدود الأفغانية - الباكستانية، التي تعرضت لقصف عنيف. وفي عملية مشابهة لهجوم الفدائيين على الجمعية التشريعية في سرينغار قبل شهرين، هاجم إرهابيون انتحاريون نيودلهي في الثالث عشر من ديسمبر 2001. فقد اقتحم أربعة رجال متمنطقين بأحزمة ناسفة البوابات الخارجية للمبنى الدائري للبرلمان الهندي وفجروا سيارة أمباسادور بيضاء كانوا يقودونها. استطاع رجال الأمن اعتراض المهاجمين، الذين قتلوا أربعة عشر شخصاً، على بعد أمتار قليلة من البرلمان، الذي كان يعقد جلسة آنذاك. ولو تقدموا مسافة قصيرة لدمروا جزءاً من المبنى وقتلوا عدداً من الوزراء الهنود. زرت الموقع بعد نصف ساعة. ووجدت الشوارع قد نظفت من الركام، والجو المخيم ينذر بالسوء. الحراس الكسالى في نقاط التفتيش السابقة شهروا البنادق الآن في وجوه الناس. وترددت في جنبات المدينة كلها أصداء صفارات سيارات الإسعاف والشرطة وحلقت المروحيات في سمائها. تبين للهنود أن المهاجمين ينتمون إلى جماعة كشميرية مسلحة تتخذ من باكستان مقراً لها تدعى «جيش الأنقياء». أما رئيس وزراء الهند أتال بيهاري فاجبايي فقد حمل باكستان المسؤولية وطالبها بتسليم عشرين إرهابياً يقيمون على أراضيها على الفور. وطالب أيضاً بوقف فوري لتسلل المسلحين عبر «خط السيطرة» وإغلاق معسكرات تدريب الإرهابيين الذين تدعمهم باكستان في أزاد كشمير كما زعم. أنكر برويز مشرف بغضب تورط باكستان في الهجوم. وبدا كأن الجارتين تستعدان لجولة أخرى من العداء والخصومة. وسوف يتفاقم الوضع بعد ذلك.

كان والداي في زيارة للهند في عيد الميلاد ذاك. أخذناهما إلى رانثامبور، المحمية الشهيرة للنمور في ولاية راجستان. لم نشاهد هناك نمراً واحداً. لكن لمحنا واحداً من أضخم الحشود العسكرية في التاريخ الحديث. فقد أمر فاجبايي بإعادة انتشار جيش الهند الذي يبلغ عدد أفراده 1.2 مليون جندي على طول الحدود الدولية مع باكستان. وتقع ولايات راجستان وغوجارات والبنجاب على هذه الحدود. «علقنا» في محطة جايبور للقطارات في راجستان. وسرعان ما اتضح لنا سبب تأخر القطار المسافر إلى رانثامبور. جلسنا طوال ساعتين على رصيف المحطة نشاهد قطاراً إثر قطار يتجه شمالاً ويحمل الدبابات والمدافع الثقيلة والعربات المدرعة من ناقلات الجند وآلافاً مؤلفة من

الجنود. ذكرني مشاهدة العتاد الحربي الهندي الصدئ وهو يمر أمامنا بما قرأته عن الاستعدادات العسكرية قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى: عملية حشد الجنود اتبعت جداول مواعيد القطارات الأوروبية. والآن، جرى حشد الجنود في الهند، الذي دعي فيما بعد بـ«دبلوماسية الإكراه»، وفقاً لحركة القطارات الهندية. أثار المشهد نوعاً من الشعور بالقلق. كانت بداية غير عادية لعطلة عيد الميلاد، ووضعت حداً لإجازتي، نظراً لشعوري بالذنب المهني لأنني لم أكن في المكان الصحيح. لكن لم يكن من الواضح أين يقع المكان الصحيح.

لم يحدث شيء كما تبين لاحقاً؛ أو بالأحرى حدثت أشياء كثيرة طوال الأشهر الستة اللاحقة قبل أن توقف الهند «عملية البسالة» كما دعتها. ثمة شائعات غير مؤكدة لكن منتشرة على نطاق واسع تشير إلى أن كل جانب ثبت الرؤوس الحربية النووية على الصواريخ استعداداً لتصاعد حدة النزاع، الذي هدد بالتفجر في أي وقت. ويقال إن الهند أثناء الأزمة، كانت على وشك إصدار الأمر بتنفيذ ضربة عسكرية عبر الحدود مرتين، في يناير ومايو من عام 2002، وتراجعت في المرتين في آخر لحظة. وفي أكتوبر من العام نفسه، عادت القطارات في الهند إلى العمل كالمعتاد، لتسهيل إعادة أفراد الجيش الهندي الذين أصابهم الإرهاق والإحباط إلى ثكناتهم هذه المرة. وربما خرجت نمور محمية رانثامبور من ملاجئها النووية في ذلك الحين.

وصف أحد المراقبين ذات مرة الحرب بين الهند وباكستان بأنها «أعمال شغب طائفية تخوضها الدولتان بالدروع الحربية»[14]. العبارة مثيرة ومراوغة دون شك. فباكستان بلد مسلم يستمد شرعيته من الله لا من الشعب. لكن الهند بلد متنوع متعدد الديانات له دستور علماني. وعلى الرغم من العيوب والمثالب كلها، فإن من الإجحاف وصف الجيش الهندي بأنه «هندوسي»، نظراً لوجود ضباط مسلمين ومسيحيين وعديد من الأفواج المؤلفة من الجنود السيخ. كما أن البرلمان الهندي انتخب رئيساً مسلماً للدولة في عام 2002، في حين أن الجنرال جي. جي. سينغ، الذي عين رئيساً لهيئة أركان الجيش الهندي، ينتمي إلى طائفة السيخ، مثل مانموهان سينغ رئيس الوزراء. أما أقوى امرأة في الهند فهي أجنبية المولد ومسيحية الديانة.

ربما تكون عبارة «أعمال شغب طائفية تخوضها الدولتان بالدروع الحربية» مضللة لسبب آخر. فأعمال العنف الطائفية تحمل دلالة ضمنية تشير إلى أعمال القتل والذبح. لكن عدداً قليلاً -نسبياً- من الجنود الهنود والباكستانيين قتلوا في الحروب بين الدولتين منذ استقلالهما. على الصعيد الرسمي، خاضت الهند وباكستان ثلاث حروب - في أعوام 1947، و 1965، و 1971. هنالك حرب رابعة غير رسمية جرت بينهما عام 1999، حين قامت قوة كبيرة من «رجال حرب العصابات -كانوا في الحقيقة جنوداً باكستانيين بملابس مدنية- باحتلال مرتفعات كارغيل الإستراتيجية على الجانب الهندي من «خط السيطرة». لكن جنود المشاة الهنود طردوهم منها بعد أن شنوا هجوماً دموياً دام أربعة أسابيع. كانت المواجهة تشابه في طبيعتها الحرب الكاملة، لكن قصيرة الأمد، مع لحظات تشتد فيها حدة القتال. أما الخسائر البشرية في الحروب الأربع بين الهند وباكستان فكانت أقل من خمسين ألف قتيل. هنالك معارك في الحرب العالمية الأولى في أوروبة سقط فيها مثل هذا العدد من القتلى في مدة اثنتين وسبعين ساعة. فإذا وسعنا تعريف الحرب ليشمل ما تدعوه الهند «الحرب التي تخوضها باكستان بالوكالة في كشمير» -أي الحرب التي يخوضها مقاتلون مستقلون اسمياً- فإن عدد القتلى يزيد بأربعين إلى ثمانين ألفاً. صحيح أن العدد ضخم، لكن أعمال الشغب الطائفية في الهند قبل التقسيم وأثناءه وبعده أدت إلى سقوط عدد أكبر من الضحايا.

ومع ذلك، فإن وجود باكستان ذاتها يعد في نظر كثير من الهنود خنجراً يستهدف قلب الهند. وهذا التهديد يدرك على عدد من المستويات. أولاً، باكستان تزعم الحق في ضم كشمير، المقاطعة الهندية الوحيدة التي تسكنها أغلبية مسلمة. ومن المستبعد أن تتخلى باكستان عن هذا الزعم، لأن أغلبية سكانها من المسلمين. فإذا كانت نظرية «الأمتين» (التي عرضها محمد علي جناح) مخطئة، فإن باكستان ما كانت لتقوم أصلاً. أما إذا كانت صائبة فإن كشمير يجب أن تضم إلى باكستان. ونظراً للمدى الذي طالبت فيه أنظمة الحكم العسكرية في باكستان بالتضحية الوطنية بالدم والمال في سبيل قضية كشمير، فإن من المفاجئ أن تتخلى إسلام أباد عن موقفها.

ثانياً، عدَّ الهنود إقامة دولة باكستان عملية بتر لحدود الهند الطبيعية والجغرافية والثقافية. القوميون الهندوس ليسوا وحدهم الذين يحلمون باليوم الذي يعاد فيه دمج باكستان بالهند الكبرى. إذ يرى كثير من الهنود، على مختلف مشاربهم وخلفياتهم، في التقسيم خطأ مأساوياً لم يكن ضرورياً ويجب تصحيحه سلمياً في مرحلة ما من المستقبل. ومن الطبيعي أن يسهم هذا الموقف في مفاقمة شعور باكستان العميق بعدم الأمان. لكن قلة قليلة من الهنود تشارك نهرو رأيه بأن باكستان دولة غير قابلة للحياة ولا يمكن الدفاع عنها، وأنها ستندمج في الهند مرة أخرى في نهاية المطاف. ويبقى توق الهنود إلى وحدة شبه القارة عاطفة غامضة وشعوراً مبهماً وليس سياسة.

ثالثاً، والأكثر تعقيداً، تعد باكستان تهديداً وجودياً لهوية الهند العلمانية. وبغض النظر عن مدى استقرار العلاقات بين البلدين، سيظل وجود باكستان في الذهنية الهندية عاملاً محتملاً لتقسيم ولاءات الأقلية المسلمة في الهند، التي تبلغ الآن نسبة 14% من السكان، أو قرابة 150 مليون نسمة. وهذا بدوره يفاقم مشاعر انعدام الأمان لدى مسلمي الهند. وما من شك في أن باكستان سعت في مناسبات عديدة طوال السنوات الستين الماضية إلى إلهاب هذا العصب الحساس. لكن باستثناء كشمير، التي يسكنها أقل من 10% من مسلمي الهند، فإن توقعات الكثيرين في باكستان (وفي العالم) بأن الهند ستنهار تدريجياً تحت الحمل الثقيل لتناقضات التنوع فيها قد ثبت خطؤها. فقد بقي مسلمو الهند مستقرين بثبات في الهند، كحال معظم الأقليات الأخرى فيها*. ولا توجد تحركات سكانية مهمة بين الهند وباكستان منذ عام 1947. ولابد من الاعتراف بوجود قلة من الحوادث المضخمة رفع فيها سكان أحياء الفقر المسلمين في الهند الراية الباكستانية عندما التقى المنتخبان الوطنيان في الكريكيت. لكن مثل هذه الحوادث لا تكاد تذكر في البلدان الأخرى. أما «اختبار الكريكيت» الشهير الذي نادى به نورمان تيبت، حيث يجب

* تعاني الهند فعلاً موجة من حركات التمرد الانفصالية الصغيرة، خصوصاً في الولايات الشمالية الشرقية المعزولة، على حدود الصين وميانمار وبنغلاديش وبوتان ونيبال. لكنها محاصرة جغرافياً، ومعظم جيران الهند، خصوصاً الصين، قد سحبوا دعمهم الضمني الذي قدموه ذات يوم لعديد من الجماعات الانفصالية في المناطق الشمالية الشرقية.

على البريطانيين الآسيويين تشجيع إنكلترا عندما يلعب منتخبها مع الهند أو باكستان، فيعده معظم البريطانيين محرجاً وفي غير محله، وليس دليلاً على الشعور الوطني.

عدد العوامل المشتركة بين الشوفينيين المتعصبين في الهند وباكستان يفوق ما يقبلون الاعتراف به: فكلاهما ينظر إلى التنوع بعين الشك والريبة؛ ويسعى إلى تنظيم دور المرأة في المجتمع والسيطرة عليه عبر التعليم والثقافة. ويشتركون أيضاً في الانحياز والتحيز عند استخدام التاريخ وإساءة استخدامه. فوفقاً للكتب المدرسية في باكستان، يعود تاريخ باكستان الحديثة إلى الفتوحات الإسلامية المبكرة للهند، حين شن محمود الغزنوي من أفغانستان الغارات على شمال الهند. أما الصاروخ النووي الباكستاني متوسط المدى فيدعى الغوري، نسبة إلى محمد الغوري الذي أصبح أول مسلم يحكم دلهي بعد أن هزم الأمير الهندوسي بريثفي راج شوهان عام 1192. وبالمقابل، يدعى الصاروخ الهندي قصير المدى بريثفي (يعني أيضاً «الأرض» بالسنسكريتية). وفي صورة مرآوية عاكسة للكتب المدرسية التي اعتمدها حزب بهاراتيا جاناتا حين حكم الهند، فإن الكتب المدرسية الباكستانية تضع الهندوسي في قالب «المراوغ والمخادع والغشاش»[15]. أما الكتب المدرسية التي تدرس في قرابة عشرين ألف مدرسة تابعة لمنظمة المتطوعين الوطنيين القومية الهندوسية فتصف المسلمين بأنهم قساة غلاظ ومتعطشون لسفك الدماء. في باكستان، صور أورانغزيب، الذي اقتبسنا منه في بداية هذا الفصل، بوصفه بطلاً، لكن يصبح شريراً في الهند. في حين قلل المتعصبون المسلمون والهندوس معاً من أهمية وإنجازات جده الأكبر، أكبر، أحد أكثر حكام الهند تنوراً وانفتاحاً. فهما وجهان لعملة واحدة.

قال أحدهم ذات يوم إن العداء بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة أثناء الحرب الباردة كان أيديولوجياً، في حين أن العداوة بين الهند وباكستان بيولوجية. وكلما زرت باكستان، يفاجئني الخوف الرهابي الظاهر الذي تشعر به النخب العسكرية والدبلوماسية في إسلام أباد تجاه الهند. ويفاجئني أيضاً غياب مثل هذه المشاعر لدى الباكستانيين العاديين. الشيء ذاته ينطبق أيضاً على الطرف المقابل، مع أن الهند تلعب دوراً أكبر في تشكيل المدركات الشعبية عن الباكستانيين مقارنة بدور باكستان في تشكيل المخيلة

الشعبية عن الهنود، ويعود جزء من السبب إلى جاذبية بوليود. وحين يلتقي الباكستانيون والهنود العاديون يتبادلون التحية عادة وتسودهم مشاعر المودة والوئام.

في أبريل عام 2004، سافرت بالطائرة إلى كراتشي، عاصمة باكستان التجارية، لحضور أول مباراة في الكريكيت تقام منذ سنوات بين البلدين. كانت المباراة الأولى في سلسلة من اللقاءات التي نظمتها نيودلهي وإسلام أباد بعد انطلاق عملية السلام الثنائية في عام 2003. منح آلاف الهنود تأشيرات زيارة لحضور المباراة، وهذا ما جعلها تمثل أهم اتصال مباشر بين «الشعبين» سمح به منذ بدأت عملية السلام. قضيت معظم النهار أتجول في الملعب بحثاً عن المشجعين الهنود لأعرف كيف عاملهم الباكستانيون. بدا معظمهم مذهولاً. الجماهير الباكستانية الصاخبة كانت تهتف «يعيش أخترا» (أسرع قاذف كرة في المنتخب الباكستاني). لكن حين أظهر أحد اللاعبين الهنود مهارة استثنائية، تحولت هتافات الجماهير الباكستانية إلى: «عاشت الهند!». كل هندي قابلته قال إنه لقي معاملة الأخ (معظم المشجعين من الرجال): أصحاب المتاجر رفضوا قبض ثمن البضاعة؛ وسائقو التاكسي رفضوا أخذ الأجرة؛ والفنادق خفضت الأسعار؛ والناس في الشوارع قدموا الحلوى والهدايا الصغيرة. قال أحد المشجعين الهنود ضمن جماعة يرتدي أفرادها القمصان الزرقاء للمنتخب الوطني الهندي: «العواطف جياشة. لم نكن نعرف ما ينتظرنا، لكننا خشينا من مشاعر العداء». فازت الهند بالمباراة وتلقت التحية من حشود ضخمة من المشجعين الباكستانيين.

وبالمقابل، تمثل الهند للمؤسسة العسكرية - البيروقراطية الباكستانية صداعاً مبرحاً يفوق تبريحه آلامها كلها مجتمعة. فالتهديد القادم من الهند والحاجة إلى تأمين كشمير وفرا الذريعة الرئيسة للحكم العسكري في باكستان طوال أكثر من نصف تاريخ البلد. هاتان القضيتان تفسران السبب الذي جعل باكستان تنفق حصة أكبر بكثير من الناتج القومي الإجمالي على الدفاع مقارنة بالهند: في عام 2003، أنفقت الهند 15% من ميزانيتها على الدفاع، مقابل 54%[16]. يصف بعض المراقبين باكستان بأنها وطن مسلمي جنوب آسيا. في حين يعدها آخرون جمهورية إسلامية في

وسط آسيا، أو حتى امتداداً للشرق الأوسط. أما الوصف الأكثر ثباتاً للهوية الوطنية الباكستانية فهو: «ليست الهند».

حتى أثناء العلاقات الدافئة بين إسلام أباد ونيودلهي، تستخدم المؤسسة الباكستانية بصورة روتينية التهديد المزعوم القادم من الهند ذريعة لتبرير إحكام قبضتها على السلطة السياسية. في أكتوبر 2005، أصاب المنطقة أشد الزلازل التي تعيها الذاكرة تدميراً، قتل فيه سبعون ألف شخص وتشرد الملايين. وكانت أكثر المناطق تضرراً في الطرف الباكستاني من كشمير؛ مع أن الطرف الهندي أصيب أيضاً. وشنت وسائل الإعلام الباكستانية حملة انتقادات قوية لطريقة تعامل الرئيس مشرف مع حالة الطوارئ، واعتقد كثيرون أن الجيش تصرف ببطء تجاه محنة ملايين الكشميريين. هذه الاستجابة البطيئة والفاترة منحت المنظمات الخيرية الإسلامية الفرصة للتحرك والتدخل وزيادة شعبيتها. بارقة الأمل ظهرت حين تحركت الهند وباكستان (وإن بتردد) لفتح عدة نقاط عبور على طول «خط السيطرة» لمعونات الإغاثة، التي قدم معظمها من الجانب الهندي إلى الباكستاني. وفي خضم ذلك كله، ظهرت عشرات اللوحات الإعلانية الكبيرة فجأة في إسلام أباد تشير ضمناً إلى تهديد جديد قادم من الهند. وطالبت الملصقات بأن تعيد الهند كشمير إلى باكستان على الفور. قال أحدها: «الكشميريون ليسوا أبناء رب أقل عزة». كانت الحملة تذكرة بغريزة العسكر في باكستان التي تدعوهم إلى اللجوء إلى الدعاية المشتتة للانتباه كلما وجدوا ظهورهم إلى الحائط.

أصبح من الدارج على مدى العقود تقديم الحجة على استحالة حل النزاع على كشمير بين الهند وباكستان. من الجانب الهندي، يسود الرأي القائل إن باكستان لن تقبل، طالما ظلت تحت حكم العسكر، باتفاقية سلام لا تمنحها السيادة على المقاطعة. لكن إذا أرادت حكومة باكستانية ديمقراطية عقد اتفاق لا يلبي الحد الأعلى من مطالب البلد، فإن الجيش سيستخدم ذلك ذريعة للقيام بانقلاب عسكري آخر. ومثلما حدث مع انقلاب مشرف عام 1999

الذي أعقب قراراً اتخذه نواز شريف، رئيس الوزراء الباكستاني المنتخب ديمقراطياً، بالانسحاب من مرتفعات كارغيل على الجانب الهندي من كشمير - فإن المحاكم

الباكستانية لا تتردد في دعم شرعية انقلابات الجيش. وتستشهد المحكمة العليا دائماً «بمبدأ الضرورة» الجامع الشامل (جملة من القوانين وضعها القضاة في باكستان بعيداً عن الدستور)، الذي يقول: «ما هو ليس قانونياً تجعله الضرورة قانونياً»[17]. بكلمات أخرى، الضرورات تبيح المحظورات. أي إذا وقفت دبابة أمام باب المحكمة فعلى القضاة القبول بما تأمر به. لذلك، ثمة أسباب وجيهة تدعو الهند إلى النظر إلى باكستان بوصفها إما عدائية جداً أو ضعيفة جداً (بالتناوب) بحيث لن تعقد اتفاقية سلام دائم.

من وجهة نظر باكستان، تعد الهند قوة الأمر الواقع (وهذا رأي صائب) التي ستتشبث بجامو وكشمير، لكن يسعدها أن تترك لباكستان جزءها الأصغر من الإقليم المقسم. ومن المؤكد تقريباً أن الهند ستقبل باتفاقية سلام تحول «خط السيطرة» من خط وقف لإطلاق النار إلى حدود دولية. وفي حكم المؤكد أيضاً أن باكستان لن تقبل بذلك. هنالك قلة من الهنود المؤيدين لإعادة كشمير كلها إلى الوطن الأم. لكنهم يظلون على هامش الجدل المحتدم. المؤسسة الباكستانية تصيب حين تعد الهند بلداً يوافق غالباً على أمر ثم يقضي سنين طويلة يجادل حول ما وافق عليه فعلاً. لا يوجد عديد من الهيئات الدبلوماسية في العالم تماثل الخارجية الهندية في تسقط أخطاء الألفاظ الدلالية. في بعض الأحيان يمكن لهذه المقاربة أن تفرز نتائج عكسية. وفي سياق آخر، قال نارايانا مورثي، مؤسس «إنفوسيس»، أكبر شركات البرمجيات الهندية، إن البيروقراطيين الهنود يعانون نزعة مزمنة نحو التعبير الخاطئ عن الإنجاز. ولم يحبط ذلك الباكستانيين وحدهم. فعادة الهند في مقاربة الدبلوماسية بأسلوب المجادل الذكي في المدرسة الثانوية قد أزعجت حكومات عديدة في شتى أنحاء العالم. لكن بغض النظر عن الحرب النووية، التي ستفني البلدين معاً، ليس لدى باكستان ما تستطيع أن تغير به الأمر الواقع. فقد حاولت اللجوء إلى الحرب التقليدية عدة مرات وفشلت في كل مرة.

في نهاية المطاف، يعتقد معظم المراقبين أن أي حل معقول وممكن للنزاع على كشمير ربما يكمن -على الأقل جزئياً- في الإقليم نفسه. وبوصف الهند قوة الأمر الواقع، يمكنها على الأرجح أن تعجل أكثر من باكستان للتأثير في مواقف الكشميريين بطريقة إيجابية، خصوصاً أن باكستان، على الرغم من عملية السلام، قد احتفظت بخيار نشر الإرهابيين

ودفعهم إلى التسلل عبر «خط السيطرة». وثمة علامات دلالية ظهرت في السنوات القليلة الماضية تشير إلى أن سكان كشمير على استعداد للقبول بنوع من التسوية التي لا تؤدي إلى الاستقلال الكامل للإقليم ولا إلى الاندماج الكامل بباكستان. ليس هذا نتيجة تعاطف مفاجئ مع الهند، التي ظلت دوماً تخطئ في قراءة الوضع في كشمير وتعامل سكانها بتغطرس وجهل. بل هو مدفوع بمشاعر التعب والإرهاق والضجر المتنامية لدى الكشميريين من العنف وحالة عدم اليقين اللذين هيمنا على حياتهم مدة طويلة. إن التغير التدريجي في الذهنية والمواقف يمكن أن يتصل أيضاً بالنجاح الاقتصادي النسبي الذي حققته الهند في السنوات القليلة الماضية مقارنة بالوضع الاقتصادي المتقلقل والمتزعزع في باكستان.

في آخر رحلتين قمت بهما إلى كشمير، ازداد هذا التغيير وضوحاً. فكثيراً ما يشير الكشميريون اليوم إلى المقاتلين بوصفهم «أجانب» أو «إرهابيين». أما في الماضي فكانوا يسمونهم «المقاتلين من أجل الحرية». كما أن الزعماء الانفصاليين في كشمير، الذين تجمعهم مظلة حركة تسمى «مؤتمر حرية الشعب»، يتحدثون بقدر أقل من الاحترام عن الجماعات المسلحة مقارنة بحالهم في الماضي. ومعظم هؤلاء الزعماء الانفصاليين معرضون للاغتيال في أي لحظة. وبعضهم أبناء أو أخوة أو أبناء عمومة زعماء قتلوا على أيدي الجماعات المسلحة لأنهم ابتعدوا كثيراً إما عن تأييد باكستان أو الخط الإسلاموي. وليس الزعماء الانفصاليون أو المواطنون الكشميريون وحدهم من يعتقدون أن الجماعات المقاتلة خرجت عن نطاق السيطرة. فبعض الجماعات المسلحة تورطت في محاولات اغتيال الرئيس مشرف. وآخر محاولة جرت في ديسمبر عام 2003، حين فجرت قنبلة عن بعد جسراً كانت سيارة مشرف على وشك عبوره. هذه المحاولة تمت على بعد بضعة أميال من منزل الرئيس مشرف في راولبندي، مقر الجيش الباكستاني. واعتقل اثنان من الانفصاليين. هنالك أيضاً محاولات اغتيال استهدفت شوكت عزيز، رئيس وزراء باكستان الذي عينه العسكر، فقتل سائقه وحارسه الشخصي حين كان في حملة انتخابية عام 2004 في المقاطعة الحدودية الشمالية الغربية. تعد هذه الحوادث في نظر مشرف والشرائح الليبرالية والتحديثية التي تدعمه أحياناً، تذكرة بأن الوحش يمكن أن يلتهم من أوجده، فعلى الباغي تدور الدوائر.

ربما يكون أكثر زعيم انفصالي في كشمير عرضة للاغتيال عمر فاروق، المعروف باسم ميرويز، اللقب الصوفي الوراثي الذي يحظى بالإجلال في سرينغار وحملته عائلة فاروق على مدى الأجيال. المراهق لكن المتحدث المفوه فاروق حمل اللقب عام 1990 عندما اغتيل والده (لم يعرف القاتل قط). في عام 2004، قتل عم فاروق على يد المتشددين في سرينغار. وحين تحدثت معه عام 2005، فوجئت بمدى تغير موقفه منذ لقاءنا الأول عام 2001. «نحن الكشميريين، ننتمي إلى ديانات عديدة. فمنا المسلمون شيعة وسنة، والهندوس، والبوذيين. لكشمير تراث طويل من التسامح ليست له علاقة كبيرة بالثقافة الإسلامية السنية البنجابية التي تهيمن على باكستان». كما قال. هذا تصريح لرجل سئم من وزن كل كلمة قبل أن ينطق بها. قال إن معظم الكشميريين، ومنهم هو نفسه، بلغوا الحد الأقصى من تحمل العنف، من أي جهة أتى. «في الماضي، حين تنفجر قنبلة أو تقع جريمة اغتيال، ربما تعلن عشر جماعات مسلحة مسؤوليتها. أما الآن فلا يعلن أحد مسؤوليته. وهذا دليل على التغير الذي يحدث»، حسبما أفاد.

فوجئت أيضاً حين زرت فيما بعد عبد الغني بات، وهو زعيم متمرس آخر من الزعماء الانفصاليين الكشميريين، في قرية جدوده قرب بلدة باراموﻻ على بعد قرابة عشرين ميلاً من «خط السيطرة». وجدته جالساً خلف واجهة مقهى في الشارع الرئيس الصغير يتناول قدحاً من الشاي. كان الوقت أواخر الشتاء وكان يحمل تحت معطفه كيساً مليئاً بالفحم الحار ليقيه البرد، مثلما هي عادة الكشميريين. كنت قد التقيت به عدة مرات من قبل. وبدا واحداً من أعند المؤيدين وأصلبهم، على الرغم من سحر شخصيته، لوجهة نظر إسلام أباد. لكن نبرته هذه المرة كانت مختلفة. قال: «الأمور نفسها تتكرر مرات ومرات والناس سئموا. الهند تقول: (أنا دولة كبرى)، وباكستان تقول: (لكن الإسلام أكبر). إنه الجدل الحضاري ذاته. لم يعد أحد على أرض كشمير يريد سلام المقابر. الكشميريون يريدون أن تتوقف الهند وباكستان وتكون كل منهما أوسع خيالاً وأكثر إبداعاً». ذكرت أمامه سعيد جيلاني، أكثر زعماء الانفصاليين الإسلاميين تشدداً وتزمتاً في كشمير، الذي يرتبط حزبه، حزب الجماعة الإسلامية، بأكثر الجماعات المقاتلة عنفاً في الإقليم. يعد جيلاني أبرز زعماء الانفصاليين الباقين الذين ما يزالون يعارضون بعناد عملية

السلام بين الهند وباكستان. ومن الخطر معارضته. فقال بات: «جيلاني رجل نرجسي حقود. لا تهتم به».

في الحقيقة أثار جيلاني اهتمامي قبل بضعة أسابيع، حين زرته في منزله في سرينغار. ومثلما هي الحال غالباً، كان قد وضع تحت الإقامة الجبرية بأمر من السلطات الهندية. ذهبت لرؤيته مع زميلين، سيمون لونغ من مجلة «ايكونوميست»، وآمي والدمان من «نيويورك تايمز». كانت الحرارة تقترب من الصفر. جلسنا في ثلاثة مقاعد قبالة الإسلامي المتشدد. ظل يسألنا: «هل أنتم متأكدون أنكم لا تشعرون بالبرد القارص، يا أعزائي». وحين لم يصدق الإجابة، أرسل تابعاً شاباً للعثور على دثار ثم أمره بأن يغطينا جميعاً به. لم أجر لقاء تعاونياً وحميمياً قبل ذلك مع المنافسين الصحفيين. وكلما قال جيلاني شيئاً، كان أتباعه يرددون آخر ثلاث كلمات معاً. قال: «الهنود يقتلوننا دون رحمة. يغتصبون أخواتنا وبناتنا». فرددت الجوقة «يغتصبون أخواتنا وبناتنا..»، قبل أن يتابع مناجاته. «الهنود لا يحترمون حقوق الكشميريين. نحن بشر. ولسنا حيوانات». فرددت الجوقة «لسنا حيوانات..». وعلى الرغم من كآبة الكلمات، صعب علينا رسم أمارات التجهم والجدية على وجوهنا. ولم يستطع جيلاني إخفاء استيائه من عملية السلام وعدم رضاه عنها. كان شخصية فريدة.

في وقت لاحق من ذلك اليوم ذهبنا إلى الحديقة المركزية في سرينغار، حيث سيلقي مانموهان سينغ أول خطبة له بعد تسلمه رئاسة الوزراء أمام حشد من الكشميريين. الجماهير التي بلغ عددها عدة آلاف حشدتها على ما بدا واضحاً الأحزاب المحلية المؤيدة للهند. ومعظم الحاضرين تلقوا مبالغ صغيرة من المال ثمناً لوجودهم هناك. كانت الإجراءات الأمنية مشددة وطائرات الهيلوكبتر تحوّم في الجو. لكن الحشد المنظم كما هو مفترض لم يخضع للسيطرة الكاملة. فبين الحين والآخر كان بعضهم يطلق شعارات مدوية فيضطر رئيس الوزراء إلى التوقف عن إلقاء الخطبة. كان استقبالاً مألوفاً لسياسي هندي في مقاطعة نائية ومنشقة على البلد.

لكننا لم نسمع صيحات تهتف لـ«الحرية» أو «باكستان» أو «الإسلام»، كما كان يحدث في الماضي. فقد كانت الجماهير تطالب بالوظائف: «كافحوا البطالة»، مثلما رددت مراراً وتكراراً. ربما استخلصت من هذا الحادث العابر معنى دلالياً أكثر أهمية مما يستحق. لكنه بدا إشارة أخرى تثبت أن أولويات الكشميريين قد تغيرت.

أثناء وجودي في الهند تنبهتُ باستمرار لأي إشارة تؤدي إلى وضع ولاءات المسلمين الهنود موضع المساءلة والتشكيك. لكن خارج كشمير (حتى هناك فإن المشاعر السائدة تظل أكثر تعقيداً مما تُصور)، لم أجد دليلاً جدياً يثبت انقسام الولاءات. فمسلمو الهند يشعرون بخيبة الأمل من باكستان، حيث يبحث الصقور عن علامات لقمع المسلمين واضطهادهم بوصفها دليلاً يؤكد منطق وجودهم ذاته، ومن الطائفيين الهندوس، الذين تدفعهم أيديولوجيتهم إلى الاعتقاد باستحالة الجمع بين الإخلاص للإسلام والولاء للهند. أما واقع الحياة لمسلمي الهند فهو غالباً أكثر بساطة وبعداً عن التعقيد.

في عام 2004، استغل حزب بهاراتيا جاناتا المعارض بيانات ومعطيات جديدة أعلنها مكتب الإحصاء الهندي. فوفقاً للمختصين بالشؤون السكانية في الهند، نما عدد سكان الهند المسلمين بنسبة 29% بين عامي 1991 – 2001، في حين أن معدل نمو السكان الهندوس في المدة نفسها لم يتجاوز 22%[18]. أتاحت هذه الإحصائيات فرصة للجناح الهندوسي اليميني للتحدث عن خطر اكتساح المسلمين للهند. الفكرة واءمت الاتهام النمطي بأن المسلمين يمثلون تهديداً لتوازن الهند لأنهم يميلون إلى تكوين عائلات كبيرة. ووصف نارندرا مودي، رئيس وزراء ولاية غوجارات (من حزب بهاراتيا جاناتا) معسكرات اللاجئين التي وفرت المأوى للمسلمين الذين أحرقت منازلهم في أعمال شغب التي اندلعت عام 2002، بأنها «مصانع لتفريخ الأطفال».

لكن القصة وراء البيانات الإحصائية أكثر تعقيداً. فقد انخفض معدل النمو السكاني في الهند انخفاضاً حاداً بين الطوائف جميعها، من 2.2% سنوياً في ثمانينيات القرن العشرين إلى أقل من 2% في التسعينيات. ومن المتوقع أن يصل إلى 1.5% بحلول موعد الإحصاء القادم عام 2011. أثناء التسعينيات، سجلت الولايات الهندية الأكثر غنى

في الجنوب انخفاضاً أسرع في معدلات النمو السكاني مقارنة بالولايات الأكثر فقراً في الشمال. لذلك يمكن القول بكل ثقة إن النزاعات تنجم عن الاقتصاد لا الدين. ومعدلات النمو السكاني بين المسلمين الذين يعيشون في الجنوب أكثر انخفاضاً من الهندوس الذين يعيشون في الشمال. لكن نظراً لأن نسبة أكبر من المسلمين يعيشون في الولايات الأكثر فقراً، يرتفع لديهم المعدل المتوسط للنمو.

يجب أن يكون السؤال هو: لماذا تعيش هذه النسبة الكبيرة من المسلمين في حالة من الفقر النسبي في الهند؟ لكن نادراً ما يتصدى أحد لهذا السؤال. فأسبابه متعددة ومتنوعة، إلا أن هجرة معظم أفراد الطبقة المثقفة المسلمة إلى باكستان عام 1947 مثلت عاملاً مؤثراً بالتأكيد. إذ إن نسبة كبيرة من موظفي الدولة، وضباط الجيش، وأساتذة الجامعات غادروا الهند إلى بلد جديد، على أساس الاعتقاد غالباً أنهم سيجدون فرصة أفضل للترقي هناك. لم يتحرك المسلمون الفقراء من أماكنهم. وفضلاً عن ذلك كله، عملت نسبة كبيرة من المسلمين الذين بقوا في الهند في حرف تقليدية، مثل الحياكة وصنع السلال، التي شهدت انحساراً اقتصادياً منذ خمسينيات القرن العشرين. ولذلك فإن حالة الفقر التي وجدوا أنفسهم فيها كانت جديدة.

ومع ذلك، تتراجع حدة الفقر الذي يعانيه مسلمو الهند باستمرار، على الرغم من أن المعدل أقل سرعة من معدل التحسن الذي تشهده الهند ككل. لكن المعدلات يمكن أن تضلل بمقدار ما تنبئ. إذ تكمن خلف الإحصائيات والأنماط والنماذج حقيقة أن السكان المسلمين على الدرجة ذاتها من التنوع والتفاوت التي تميز الهند كلها. فمن النادر أن يتزوج مسلم يتحدث التاميلية من مسلمة تنطق بلغة غوجارات، مثلما يندر أن يتزوج هندوسي من خارج ملته. فالإسلام مجرد سمة واحدة في لائحة معقدة من الهويات والروابط المتاحة لمعظم الهنود. لقد وصف نهرو ذات مرة الهند بأنها مخطوط مكتوب فوق مخطوط. كانت تلك طريقته في توضيح التراكم الضخم للتواريخ والثقافات التي تركت أثرها على البلاد، ولم يغب أي منها أو يندثر كلياً. والهنود أنفسهم، ومنهم المسلمون، يمكن وصفهم بمخطوطات كتبت فوق مخطوطات مصغرة.

على سبيل المثال، يعد المسلمون في أجزاء عديدة من الهند معرضين للتصنيف الطبقي مثلهم مثل نظرائهم الهندوس في ولاية أوتر براديش، التي تضم أكبر عدد من المسلمين في الهند (30 مليون نسمة). تنقسم طبقات المسلمين إلى أشراف وغير أشراف[19]. وكثير من الأشراف، الذين يمثلون الطبقة العليا ويحملون أسماء نبيلة، مثل شيخ، وباتان، ومغول، وسيد، يزعمون التحدر من أرستقراطية أجنبية، فارسية أو عربية أو تركية أو أفغانية. وهم يزدرون مسلمي الطبقات الدنيا، ومعظم هؤلاء من ذرية الطبقات الدنيا الهندوسية التي اهتدت إلى الإسلام (للفرار من إسار الطبقة!)، مثلما يزدري البراهمة الهندوس الداليت. والمكان الوحيد الذي يقف فيه الأشراف وغير الأشراف جنباً إلى جنب على قدم المساواة هو المسجد. لكن يميل مسلمو الطبقات الدنيا إلى محاكاة عادات عائلات الأشراف وتقاليدها وآداب سلوكها في قراهم عبر وضع نسائهم في «البردة» (حجاب المرأة وهو علامة على الثراء)، لأن الأغنياء وحدهم يقدرون على منع زوجاتهم من العمل في الحقل. في الوقت ذاته، ينتقل الأشراف إلى المدن، وفي حالات عديدة «يتغربنون» وتتخلى نساؤهم عن البردة (الحجاب)[20]. ربما تمثل هيمنة النظام الطبقي الهندوسي وتأثيره الواسع النطاق سبباً آخر منع مزيداً من أفراد الطبقات الدنيا من اعتناق الإسلام أو المسيحية*.

ثمة تعقيد آخر يتعرض للتجاهل هو الانقسام بين الطائفتين السنية والشيعية. ففي مدن مثل لوكنو، عاصمة أوتر براديش، حيث تتركز أعداد كبيرة من أتباع المذهبين كليهما، تصبح المشكلات الطائفية الرئيسة تلك التي تقع بين الشيعة والسنة لا بين المسلمين والهندوس. وعلى مدى السنين، رافق الاحتفال بذكرى عاشوراء (في شهر محرم)، حيث ينعي الشيعة شهادة الحسين حفيد الرسول، أعمال عنف بين أتباع المذهبين. ونظراً لأن شيعة لوكنو يمثلون أقلية بين مسلمي الهند، فإنهم يصوتون لأهداف تكتيكية لمصلحة مرشحي حزب بهاراتيا جاناتا القومي الهندوسي. وهذا مثال معبر عن مبدأ «عدو عدوي» في السياسة الهندية. ويشير إلى الحدود المقيدة لمعنى تعبير «الإسلام الهندي».

* في معظم الكنائس المسيحية في الهند، خصوصاً الكنيسة الكاثوليكية، يعاد إنتاج النظام الطبقي كلية تقريباً، حيث يحتل البراهمة مناصب الأساقفة والداليت هم أفراد أبرشياتهم، ولو زادوهم عدداً. في بعض أجزاء الهند، تخصص للداليت مقابر منفصلة.

من الأنماط النموذجية الواسعة الانتشار على نحو خاص عن المسلمين السنة في الهند أنهم يدرسون أبناءهم في المدارس الدينية المتخلفة بدلاً من تزويدهم بالتربية والعلوم الحديثة. صحيح أن كثيراً من أطفال المسلمين يرسلون إلى المدارس الدينية، خصوصاً في شمال الهند، لكن سبب ذلك يعود -جزئياً- إلى أن كثيراً من مدارس الدولة المحيطة بهم لا تعمل بصورة منتظمة. ووفقاً للإحصائيات الحكومية، فإن ثلث المدرسين يتغيبون عن مدارس الدولة. في بيهار، التي يسكنها عدد كبير من المسلمين، لا تصل الكهرباء إلا إلى نسبة تقل عن 3% من المدارس، ولا توجد مراحيض للمدرسين إلا في 20% منها[21]. بضعة مدارس فقط لديها حمامات منفصلة للبنات. ويميل الآباء المسلمون والهندوس معاً إلى منع بناتهم من الذهاب إلى المدارس. لكن إن وجدت فرصة معقولة في هذا السياق فلن يتردد الآباء المسلمون في اغتنامها.

زرت البلدة القديمة في حيدر أباد المعروفة باسم تشار مينار نسبة للمآذن الأربع المهيمنة على أفق المدينة التي كانت عاصمة جليلة تسودها التأثيرات الفارسية. أما أحياء الفقر التي تسكنها غالبية من المسلمين وتكتسح البلدة القديمة التي مازال جمالها أخاذاً، فتغيب عنها الخدمات الحكومية. ولا يتوافر عديد من مدرسي مدارس الدولة إلا لإعطاء الدروس الخاصة، ومن ثم أقام الآباء شبكة مزدهرة من المدارس الخاصة، يعمل فيها مدرسون يفتقدون الخبرة كلية أو جزئياً، وتفرض رسوماً تتراوح بين 500 – 1500 روبية (12 – 36 دولاراً) في الشهر. تستخدم هذه المدارس كلها الإنكليزية لغة للتدريس، خلافاً للمدارس الحكومية التي تدرس إما بالتيلوغو (لغة ولاية أندرا براديش) أو بالأوردية. أما الأغلبية الساحقة من تلاميذ هذه المدارس الخاصة فهم من أبناء مسلمي الطبقات العاملة – سائقي الدراجات ثلاثية العجلات، وبائعي الخضراوات، والحائكين، والميكانيكيين. من أكثر الملامح التي تلفت الانتباه في هذه المدارس تعادل عدد البنات والصبيان في صفوفها. فقرابة ثلثي أطفال المدارس في منطقة حيدر أباد التي يسكنها مليون نسمة يذهبون إلى المدارس الخاصة[22]. وقلة من البنات محجبات.

المدارس تحمل أسماء متنافرة، مثل مدرسة أكسفورد العامة، والوادي الأخضر، وكاليفورنيا العليا، ووينسدسور دبلوما، تناقض طبيعتها المؤقتة والمرتجلة وأماكنها المتواضعة

في الأزقة الخلفية لتشار مينار. لكن على الرغم من حدة الفقر، فإن أزقة عديدة هناك تتميز بنظافتها. ويبدو أن سكان أحياء الفقر المسلمين في حيدر أباد لم يكتفوا بتحمل مسؤولية تدريس أبنائهم فقط. في إحدى المدارس، إم. إيه. أيديل (نسبة لاسم صاحبها محمد أنور)، ثمة لافتة بارزة تقول: «إذا أعطتك الحياة صخرة، فإن بناء جسر أو جدار هو خيارك أنت».

تحدثت مع بعض الأمهات اللاتي ينتظرن انتهاء الدوام في المدرسة. معظمهن محجبات وجميعهن أميات. والتعليم الوحيد الذي تلقينه كان تدريباً (شفهياً) في المدارس العربية لكي يتمكن من تلاوة القرآن. أردن أكثر مما حصلن عليه لبناتهن. «تغير العالم منذ كنا بنات صغيرات. ونريد لبناتنا أن يتعلمن الإنكليزية لكي يحصلن على عمل. نريد لبناتنا أن يمتلكن الفرص التي لم تتح لنا»، مثلما قالت رضوانا بيجوم، التي يعمل زوجها سائقاً لدراجة ثلاثية العجلات. وما قالته رضوانا كان لازمة سمعتها مراراً وتكراراً. وزوجها ينفق خمس ما يكسبه شهرياً (3500 روبية) على تعليم أبنائه.

داخل غرفة الصف كانت البنات يرددن نشيداً بالإنكليزية. سألتهن من التي تريد أن تعمل عندما تكبر. رفع الجميع أيديهن، فسألتهن عن المهنة. تفاوتت الطموحات بين الطب والمحاماة والفضاء. أرادت اثنتان أن تصبحا لاعبتي كرة مضرب، ولم يكن ذلك مفاجئاً. فسانيا ميرزا، وهي مراهقة مسلمة من حيدر أباد، دخلت منذ مدة قريبة لائحة أفضل خمسين لاعبة التي يصدرها الاتحاد الدولي لكرة المضرب، وتعد اللاعبة الهندية رقم واحد. يمكن مشاهدة صورها في كل مكان من المدينة وفي مختلف أرجاء الهند. وكان أحد ملالي ديوباند قد أصدر فتوى تمنعها من ارتداء التنانير القصيرة على أرض الملعب. وردت الآنسة ميرزا بارتداء ملابس أكثر استفزازاً. ومع ظهور الجدل الهامشي على الملأ، بدأت ترتدي قميصاً قطنياً كتبت عليه جملة تعبر عن رفضها لما يقال وعدم استعدادها لمناقشته. وخارج المسجد الجامع في دلهي، حيث يتركز أكبر عدد من المسلمين «الحضر» في الهند، أبدى البائعون المتجولون المسلمون عدم اكتراث مماثلاً. فقد كانوا يبيعون صوراً لميرزا في ثياب غير محتشمة أمام فنادق الحجاج. بعض الصور جرى

تزيينها لتبدو الثياب كاشفةً واصفة ولصيقة. وقالت اللاعبة نفسها لوسائل الإعلام الهندية: «طالما أفوز في المباريات فإن من غير المهم هل يبلغ طول التنورة ست بوصات أم ستة أقدام». سألت الفتيات في حيدر أباد ماذا لو رفض أزواجهن عملهن. فأجبن قبل أن يضحكن بخجل: «آنئذ لن نتزوجهم». وبدا أنهن لا يفتقد الطموح.

زرت في الطريق جميلة أمشاد، الشاعرة المحلية الشهيرة التي تكتب باللغة الأوردية والرائدة المتحمسة للحركة النسوية المدافعة عن حقوق المرأة المسلمة. تدير جميلة مركزاً لنساء أحياء الفقر، وكثير منهن يتعرضن للضرب من الأزواج. «للمرأة المسلمة عدوان تجمعهما عوامل مشتركة كثيرة. عدونا الرئيس هو التعصب الطائفي الهندوسي. والهندوس المتعصبون لا يضمرون سوى الشر للمسلمين. وعدونا الآخر هم الملالي المسلمون الذين يحسبون أن المرأة مجرد متاع منقول». جميلة أمشاد واحدة من عدد متزايد من النساء المسلمات اللاتي يسعين صراحة لتغيير الأركان المحورية لقانون الأحوال الشخصية الإسلامي في كتب القانون والتشريع. ومن أهم ما يشتكين منه عادة «الطلاق بالثلاثة»، التي تجيز للزوج المسلم تطليق زوجته بمجرد القول «أنت طالق» ثلاث مرات. وتشعر جميلة باستياء خاص من هيئة قانون الأحوال الشخصية لعموم الهند، التي تتحدث باسم «المسلمين الهنود» دون أن تملك صفة قانونية أو تشريعية. لم تحقق الحملة الهادفة لتحديث قانون الأحوال الشخصية الإسلامي في الهند النجاح إلى الآن. لكن من الواضح أن المسلمين إذا أرادوا إصلاح القانون الإسلامي بصورة فعالة فعليهم أن يجروا التغيير بأنفسهم. سألتُ جميلة: «من انتخب الهيئة؟ بأي حق تتكلم باسمي؟ الهيئة لا تدافع عن الإسلام. بل عن النظام الأبوي (البطركي)». على جدار مكتبها علق ملصق جعلني أضحك: «لا تعطني سواراً، أعطني قلماً». في كثير من الأحيان تعمل المنظمات الخيرية على تدريب نساء أحياء الفقر الأميات على صنع حلى صغيرة رخيصة.

تزامنت زيارتي إلى حيدر أباد مع حدث منفصل جرى في لاهور، إحدى أكبر المدن الباكستانية، ركزت عليه وسائل الإعلام الهندية. فقد تعرضت جماعة من النساء الباكستانيات لمعاملة خشنة حين حاولن الاشتراك في سباق ماراثون لتسليط الضوء على

القيود التي تكبل النساء في بلدهن. السباق نظمته أسما جهانكير، أشجع وأشهر محامية مدافعة عن حقوق الإنسان في باكستان. فرقت الشرطة المشاركات في السباق بالقوة قبل أن يبدأ لأنه يعد نشاطاً غير إسلامي للنساء. وجر رجال الشرطة بعض المتسابقات على الأرض ومزقوا ثيابهن. وصفت جهانكير الحادث بأنه تمرين على «الاعتدال المتنور» في تلميح صريح وساخر لجملة استخدمها الرئيس مشرف لوصف نوع الإسلام الذي يريد رؤيته في باكستان. لكن الحاكم العسكري لم يفعل شيئاً لمنع قمع المشاركات في السباق وإلغائه بالقوة. تساءلتُ هل كانت سانيا ميرزا ستحقق الفوز بالمراتب الأولى لو ولدت على الجانب الباكستاني من الحدود!

يصور وضع المسلمين في الهند غالباً بأنه حالة من التخلف الميؤوس منه. لكن الديمقراطية منغرسة في عمق المجتمعات المحلية الإسلامية مثل حال غيرها من الطوائف والمجتمعات. وبعد الهجوم على البرجين التوأمين في نيويورك، أصبح القول إن الهند لم تنتج أي إرهابيين إسلاميين بسبب ديمقراطيتها، شائعاً إلى حد الابتذال. هذه الكليشيه المبتذلة غير دقيقة ولا صحيحة. فزعماء المافيا المسلمون في مبومباي نظموا سلسلة من التفجيرات الإرهابية في المدينة عام 1993 انتقاماً لأحداث الشغب التي أعقبت تدمير مسجد بابري في أيوديا قبل بضعة شهور. الانفجارات قتلت ثلاثمئة شخص. هناك عديد من حوادث التفجيرات الأخرى التي خططت لها -إذا أردنا تصديق الشرطة الهندية (ويجب عدم تصديقها على الأغلب)- المخابرات الباكستانية. وفي عام 2003، قتل عشرات من المارة في مومباي نتيجة انفجار عدد من السيارات المفخخة نفذته جماعة أطلقت على نفسها اسم «قوة انتقام مسلمي غوجارات». كان الهجوم رداً واضحاً على المذابح التي ارتكبت بحق المسلمين في غوجارات في السنة الفائتة.

صحيح أن عدداً قليلاً جداً من مسلمي الهند جندوا في مختلف الجماعات الجهادية العالمية التي برزت في العقود الأخيرة، ومنها جماعات المتمردين الكشميريين، وعلى الرغم من قرب الهند -جغرافياً- من أفغانستان، إلا أن المسلمين الهنود لم يشاركوا في الجهاد ضد الاحتلال السوفييتي لأفغانستان في الثمانينيات. وبالمقابل، تمثلت بلدان نائية، مثل الفلبين والمغرب، في صفوف المجاهدين الأفغان. ويعود جزء من السبب في ذلك إلى أن

الحكومة الهندية، خلافاً لحكومات معظم البلدان الإسلامية، تمتعت بعلاقات وثيقة مع الاتحاد السوفييتي ولم تشجع الهنود على المشاركة. لكن قد يعزى السبب أيضاً إلى حقيقة أن مسلمي الهند -على عكس مواطني معظم البلدان الإسلامية- يملكون حرية كاملة في الكلام والتعبير والعبادة والحركة. الإرهاب ظاهرة معقدة: ومن المبالغة في التبسيط والتسطيح القول إن سببه ينحصر في غياب الديمقراطية. لكن الحق في التعبير عن المظالم والشكاوى سلمياً وعلنياً لابد أن يزيد احتمال التنفيس عن الغضب والاستياء بأسلوب لا عنفي. يعادل عدد سكان باكستان البالغ 150 مليون نسمة عدد مسلمي الهند تقريباً. ويشتركون في الخلفية الإثنية والثقافية والدينية. لكن مواطني باكستان كثيراً ما يربطون بشبكات الإرهاب الدولية، في حين نادراً ما يرتبط مسلمو الهند بها. وما يميز مسلمي الهند ربما عن إخوانهم في الدين في باكستان هو النظام السياسي الذي يعيشون في ظله.

ومع ذلك، هنالك مخاوف من أن استمرار نمو اقتصاد الهند سوف يزيد تعرض المسلمين فيها للتأثر بالنسخة السائدة من الإسلام في الشرق الأوسط، حيث تقاليد العبادة أقل تسامحاً وأكثر تزمتاً من تلك التي يمارسها المسلمون الهنود. وربما يتجلى هذا التأثير بأوضح صورة في ولاية كيرالا في جنوب الهند. فقد عمل الملايين من مسلمي الولاية -وما زالوا يعملون- في دول الخليج ، خصوصاً في السعودية والإمارات العربية المتحدة. قمت بزيارة إلى «الحي الخليجي»، وهو منطقة مشجرة تبعد قرابة سبعين ميلاً عن مدينة كوتشين على بحر العرب. تريتشور، التي تشمل قطاع «الحي الخليجي»، تبعد بضعة أميال إلى الجنوب من كرانغانور، وهي بلدة صغيرة اشتهرت باستضافة أول مسجد في الهند في القرن الثامن الميلادي. استغلت المراكب العربية الرياح الموسمية لتقوم بالرحلة القصيرة بين الخليج العربي وجنوب الهند، لتجلب البضائع وتعاليم الإسلام معها. أما اليوم فإن مسلمي كيرالا هم الذين يعبرون البحر، حاملين معهم أموالاً كثيرة كسبوها من العمل في الخليج.

أول شيء لاحظته في عبد الله كوتي، وهو طاه متقاعد من كيرالا عمل ثلاثين سنة في الخليج، أنه يتحدث الإنكليزية بلكنة عربية. أخذني في جولة في «منزل أحلامه»، الذي

بناه بالمال الذي كسبه. وعلى شاكلة كثير من جيرانه، الذين يعيشون في منازل مطلية بالجبس الأبيض ومزخرفة بالأعمدة الكورنثية المزيفة، نشأ كوتي في كوخ صغير من أكواخ الصيادين، مقام على عصي من الخيزران ومسقوف بالقش. والآن يضم منزله طابقين وغرف منامة وبوابة كبيرة عند المدخل من خشب الساج. أما الداخل فقد زخرف بخشب مائل إلى الصفرة. أحد أبنائه يملك فندقاً ومتجراً في الشارع الرئيس المزدحم في «الحي الخليجي». وبعد المتجر هناك مسجد كبير بني بتبرعات من كوتي ومئات المغتربين في الخليج. المسجد أكبر بعدة مرات من مكان العبادة الصغير الذي حل محله، ومصمم وفقاً للطراز المعماري الشائع في الخليج. في حين تعلو من مآذنه أصوات الأذان من مكبرات صوت قوية ليصل إلى مناطق أبعد من ذي قبل. «أردنا أن نقدم شيئاً لإخواننا وطائفتنا»، كما قال كوتي، الذي لم يكن يبدو متديناً. وأضاف إن التأثر بالخليج غير أشياء أخرى أيضاً. فقد أصبحت معظم النساء أكثر محافظة في لباسهن. «يعد الآن من قلة التهذيب والأدب ألا تستر المرأة جسدها كله باستثناء الوجه».

يمارس الخليج تأثيرات أخرى أقل وضوحاً على مسلمي كيرالا. فلعبد الله كوتي ابنتان، إحداهما مهندسة برمجيات تعمل في الإمارات العربية المتحدة. والأخرى كانت تحضر لامتحانات دخول الجامعة عندما زرته. أما السيدة كوتي (وهي أمية لا تقرأ ولا تكتب) فهي ترغب بأن تتاح لابنتيها الفرص التي حرمت هي منها: «في هذه الأيام، على البنات أن يتعلمن جيداً، وإلا لن يجدن وظيفة في الخليج. البنات كلهن يدرسن بجد واجتهاد»، كما قالت. هنالك عدد قليل لكن متزايد من النساء المتعلمات المستقلات حالياً في «الحي الخليجي»، يقررن الآن متى يتزوجن ومن هو الزوج المناسب. «في أيامنا لم يكن لدى أي منا الخيار» مثلما أكدت السيدة كوتي. ولو تجولت في المنطقة وراقبت الحياة اليومية في الشوارع، فربما كونت انطباعاً مختلفاً. في الغرب، تدربنا على رؤية الحجاب بوصفه علامة تثبت اضطهاد المرأة وقمعها. لكن في بعض الأحيان يكون من التبعات الطبيعية والمنطقية لخروج المرأة من المنزل.

الثروة الجديدة التي هبطت على هذه الطبقة من المسلمين الذين كانوا فقراء ذات يوم مارست تأثيرات غريبة أخرى، كان من الصعب توقعها. فبعض العائلات المسلمة

تدفع المهر لعائلات الأصهار على شكل نقد سائل، أو مجوهرات، أو «سلع بيضاء» مثل الغسالات. عادة المهر انحصرت ذات يوم ضمن الطبقات الهندوسية العليا، لكنها تنتشر وتمتد إلى الطبقات الدنيا والطوائف الدينية الأخرى، ومنها الطائفة الإسلامية. ومن الصعب وصف ذلك الانتشار بالتقدم، لكنه علامة دالة على الحراك الارتقائي. «الناس يزدادون طمعاً»، كما قال كوتي.

في ولاية غوجارات التي تعد أقل الولايات تسامحاً مثلما رأينا، يغير المسلمون أيضاً أزياءهم. وبعد زهاء سنة من أعمال القتل التي ارتكبت عام 2002، تلقيت دعوة لحضور مؤتمر دعي «غوجارات المفعمة بالنشاط»، حيث كان ناريندرا مودي، رئيس وزراء الولاية، يستعرض فرص الاستثمار أمام الشركات الأجنبية. ومثلما جرت عادة مودي، الذي التقيت به من قبل، اتخذ موقفاً عدائياً وهجومياً حالما سألته عن معاملة المسلمين. وأنكر إنكاراً تاماً وجود أي مشكلات طائفية في ولايته: «هذه أكاذيب. أنت تستمع إلى دعاية أشباه العلمانيين»، حسبما قال.

شعرت بنوع من الخيبة والقنوط، وكنت على وشك ركوب سيارة أجرة إلى الفندق حين قابلني ضابط كبير في الشرطة عرفني بنفسه ودعاني إلى الغداء. الضابط مسؤول عن إحدى مناطق أحمد أباد، العاصمة التجارية لولاية غوجارات. تزامنت زيارتي مع احتفال الولاية السنوي بعيد نافراتري، حيث ترتدي آلاف الشابات والفتيات ملابس تقليدية ويتنافسن في مسابقات جماعية بديعة للرقص. أخذني ضابط الشرطة لحضور عدد من مناسبات الرقص هذه. وطوال الأمسية تحدث عما جرى أثناء أعمال الشغب. «في المناطق التي قتل فيها عدد كبير من المسلمين، كان رجال الشرطة متواطئين مع القتلة ومثيري الشغب. وفي المناطق التي تناقص فيها عدد القتلى، مثل منطقتي، قرر قائد الشرطة فرض القانون والنظام وحماية الأبرياء. إذا أردت أن تفهم أعمال الشغب والعنف في الهند، هذا ما أنت بحاجة إلى معرفته»، كما قال. لم أتيقن مدى دقة كلامه. لكن سمعت اسمه فيما بعد من مجموعة من المسلمين في أحمد أباد أكدوا سمعته بوصفه ضابطاً مهنياً محترفاً.

أخذني الضابط بعد ذلك إلى أحد أكبر النوادي الخاصة في أحمد أباد، حيث شاهدت ألفي شابة على الأقل يرقصن تحت الأضواء الكاشفة في الفناء الكبير المفتوح ضمن أسواره. كان المنظر ساحراً وآسراً. الفتيات يرتدين أزياء ملونة ومزينة ببرق (برّيق) يلتمع ويتلألأ كلما تحركن. شهد الآلاف المنافسة، حيث كان الحكام يستبعدون المتنافسات واحدة تلو الأخرى إلى أن بقيت واحدة في النهاية. أما الجوائز فشملت دراجات نارية (من صنع هوندا) وسيارة تاتا (هندية). قال الضابط: «لو كنت أراهن لراهنت على عدم وجود مسلم هنا. وهذا يصح أيضاً على الحفلات التي تقام في شوارع الولاية الليلة. لقد ذهب المسلمون وغابوا. قبل عشر أو عشرين سنة كان الهندوس والمسلمون يتبادلون الاحتفال بأعيادهم. لكن ذلك توقف تماماً في غوجارات الآن». ولا ريب في أن الفكرة تصيب النفس بالكآبة.

الفصل الطائفي التدريجي نفسه يتضح في الأزياء التي يرتديها مسلمو غوجارات حالياً. ففي حين كانت النساء المسلمات يرتدين الساري ذات يوم، فإنهن يرتدين الآن «سالوار شاميز»، وهو رداء يغطي الجسم كله. وعلى نحو مشابه، يطلق رجال غوجارات المسلمون لحاهم ويرتدون طاقيات بيضاء. «إنها حالة طلاق مأساوية بين الطائفتين اللتين تعودتا التفاعل والتواصل والتداخل»، كما قال حنيف لاكداوالا، المسلم المتحرر الذي قابلناه في الفصل الرابع. وأضاف: «مسلمو غوجارات يقفون الآن ويقولون: (إذا أردتم منا أن نكون مختلفين، فسوف نكون مختلفين)». جدران شقة لاكداوالا الصغيرة في قلب أحمد أباد مزينة بصورة للإله غانيش، ورسماً ليسوع المسيح، ومشهداً من حياة النبي. وهو متزوج من مسيحية من كيرالا. ما أدهشني أنهما يمثلان نموذجاً للزوجين الهنديين بكل ما يميزهما من كرم وتسامح وسعادة وقبول بالديانات الأخرى كلها. في مقابلتي السابقة وغير المرضية مع نارييندرا مودي، قال لي: «إندونيسيا، الدولة المسلمة، تضع صورة غانيش على إحدى أوراق عملتها. لماذا لا يكون مسلمو الهند مثل الإندونيسيين؟». في ذلك الوقت، لم يكن لدي إجابة. لكن ما فاجأني بعد ذلك أن الهندوس هم الأقلية في إندونيسية، مثلما المسلمون في الهند. فإذا أردت أن تتبع خط مودي في التفكير، فإن التوازي الصحيح يوجب أن تضع الهند هلالاً على إحدى أوراق عملتها.

هوامش

1-Akbar, Nehru, p. 6 :انظر

2-Ibid., p. 17.

3- Francis Robinson, Islam and Muslim History in South Asia (Oxford University Press, New Delhi, 2000), p. 260 :انظر

4-http://www.darululoom-deoband.com.:الوصف معروض على موقع المدرسة

5-Akbar, Nehru, p. 380.

6-Ibid., p. 318.

7- Rudolph and Rudolph, In Pursuit of Lakshmi, p. 70.

8-Robinson, Islam and Muslim History, p. 223.

9-Akbar, Nehru, p. 239.

10-Ibid., p. 270.

11- Robinson, Islam and Muslim History, p. 225 :انظر.

12- Akbar, Nehru, p. 374.

13- ثمة جدل خلافي حول توقيت توقيع المهراجا: قبل أم بعد إرسال نهرو للجنود الهنود بالطائرا إلى كشمير، وهل وقع تحت التهديد، حيث يتخذ المؤرخون الهنود والباكستانيون موقفين متناقضين.

14- Stephen P. Cohen, India; Emerging Power) Oxford University Press, New Delhi, 2001), p. 224.

15- Stephen P. Cohen, The Idea of Pakistan (Oxford University Press, New Delhi, 2004), p. 243.

16- Ibid. p. 249.

17-Ibid., p. 58.

18-Census of India, 2001: The First Report on Religion Data.

19-Zarina Bhatty in Srinivas, ed. Caste, p. 246.

20-Ibid., pp. 256 - 7.

21-The Administrative Staff College of India (ASCI), البيانات مأخوذة من: Hyderabad

22-البيانات مأخوذة من «إديوكير»، وهي منظمة غير حكومية في حيدرأباد تجري أبحاثاً على التعليم الخاص.